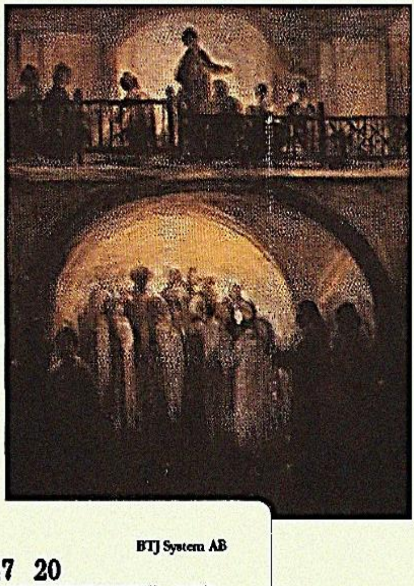
أورهان باموق

القلعة البيضاء

رواية



BTJ System AB
800 18 92 0247 20
BTJ

Hsg

PAMUK
al-Qalat al-bayda

القلعة البيضاء

* أورهان باموق
* القلعة البيضاء
* ترجمة عبد القادر عبداللّي
* جميع الحقوق محفوظة
* الطبعة الأولى 2000
* موافقة وزارة الإعلام رقم 48687 تاريخ 26 / 7 / 2000
* الناشـــــــــر : ورد للطباعـــة والنشـــر والتوزيـع
سوريـــة ـ دمشق ☎ 3321053
* الاستشارة الأدبية : حيدر حيدر
* الإشـــــراف الفني : د. مجد حيدر
* الإخـــراج الفني : دار الحصاد للطباعة والنشر والتوزيع
* التـــــــــوزيع : دار ورد ☎ 3321053

أورهان باموق

القلعة البيضاء

رواية

ترجمة: عبد القادر عبداللّي

Orientalia
Bok & Biblioteksservice
المكتبة العربية الحرفية
أورينتاليا
Surbrunnsgatan 13
114 21 Stockholm
Tel. 08-612 04 35

مقدمة

وُلِد الكاتب أورهان باموق Orhan Pamuk في اسطنبول بتاريخ السابع من حزيران لعام 1952. حقق هذا الروائي التركي شهرة واسعة مع صدور أولى رواياته «جودت بيك وأولاده». وتُرجم إلى أهم لغات العالم إثر صدور روايته الثانية: «البيت الصامت»، وقد وضعته روايته الثالثة «القلعة البيضاء» في مصاف الكتاب العالميين، وشكلت منعطفاً في مسيرته الأدبية باستخدامه أسلوب الفنتازيا التاريخية.

على الرغم من أن الكاتب لم يكتب سوى ست روايات فقط، فقد حاز في السنوات الأخيرة على لقب الكاتب ذي الكتب الأكثر مبيعاً، وبلغ عدد اللغات التي ترجم إليها تسع عشرة لغة، منها اللغات الأكثر انتشاراً في العالم: الإنكليزية ـ الفرنسية ـ الإسبانية...

اهتمت به الصحافة العالمية، وتناول رواياته كبار النقاد في العالم، وحاز على أكبر الجوائز الأدبية في بلده، وبلدان أخرى مثل جائزة: هيرالدتريبيون، وقد رفضها.

باموق جديد في كل عمل من أعماله على صُعُد الموضوع واللغة والفنية. لذلك يمكن أن يدهشنا في كل لحظة، وفي كل عمل من أعماله.

قالت الصحافة العالمية عن هذه الرواية:

«إنها النتاج الخيالي الأكمل المطروح في المكتبات». (إسبانيا - Culturo /ABC).

«تكمن مهارة باموق في شمولية الأفكار وكثرتها التي أدخلها في رواية بهذا القِصَر، وهذه البساطة». (الغارديان - لندن).

«إنها تجذب القارئ بسحرها. إنها متعة حقيقية». (نيويورك - Village Voice).

«حكاية لاتنسى». (واشنطن تايمز).

«حكاية حداثوية تثير الإعجاب مغطاة بالعقائد الراسخة». (نيويورك - Publishers).

«تفكير تاريخي وفلسفي صُنع بدقة وظرافة حول العلاقة بين الشرق والغرب». (الإندبندنت - لندن).

الإهداء

إلى نيلغون (داروّن أوغلو) (1961 - 1980)
الإنسانة الجيدة والصديقة الجيدة.

ماذا تعني بداية العشق غير أن تجذب امرأة ما اهتمامنا، والاندماج في عناصر حياة جذابة إلى حد المجهول والمجهولية، والاعتقاد بأننا لن نستطيع دخول الحياة بغير حبها.

بروست

مدخل

وجدتُ هذا المخطوط في العام 1982 في قعر صندوق مليء بقرارات وسندات تمليك وسجلات محاكم ودفاتر رسمية، بنى الغبار عليها طبقة في أرشيف قائمقامية (غبزة)، حيث اعتدنا على قضاء أسبوع من كل صيف فيها. لفت نظري فوراً لأنه مجلد بجلد أزرق يذكرنا بالأحلام، ويتلامع وسط وثائق الدولة، ومكتوب بخط مقروء. كأن يداً غريبة كتبت على الصفحة الأولى ـ من أجل إثارة فضولي بشكل أكثر ـ عنواناً: «ابن المنجّد بالتبني». ليس ثمة عنوان آخر. وبيد طفلية رُسم على هوامش الكتاب وأجزاء صفحاته الفارغة أناس ذوو ألبسة كثيرة الأزرار، ورؤوس صغيرة، وقد قرأته بمتعة كبيرة. ولأنني أحببته كثيراً، ولم أجد في نفسي اندفاعاً لنسخه على دفتر، ولأن القائمقام الشاب نفسه لايستطيع تسمية تلك الزبالة أرشيفاً، لذلك لن يحبسني إذا أسأت استخدام خدمتي، فسرقته ودسسته في حقيبتي بلمح البصر.

بداية لم أعرف ماذا سأفعل بالمخطوط غير قراءته مرات ومرات. ولأنني مازلت أشك بالتاريخ أردت أن أهتم بالحكاية التي يحكيها أكثر من القيم العلمية والثقافية و«الأنتروبولوجية» أو «التاريخية» لذلك المخطوط. وهذا ما كان يقودني إلى كاتب الحكاية نفسه. ولأنني اضطررت لترك الجامعة مع مجموعة من الأصدقاء، عدت إلى الموسوعية، وهي مهنة جدي. في تلك الأثناء خطر ببالي

أن أضع اسم كاتب الكتاب في مادة من مواد «المشاهير» في قسم التاريخ المسؤول عنه أنا.

وهكذا أعطيت نفسي لهذا العمل في الزمن المتبقي من عملي الموسوعي، ومن تعاطي المشروب. عندما طرقت المراجع الأساسية للمرحلة وجدت فوراً أن الأحداث التي تتناولها الحكاية لاتعكس الحقيقة: مثلاً: وقع حريق كبير في اسطنبول خلال الفترة التي قضاها (الكوبرولو) وزيراً أولاً، ولكن ليس ثمة قيد أو إشارة إلى حدوث مرض أو وباء على نطاق واسع كما ورد في الكتاب. كُتبت أسماء بعض وزراء تلك المرحلة بشكل مغلوط، واستخدم بعضها مكان بعضها الآخر، وغُيّر بعضها تماماً. ولاتتوافق أسماء كبار المنجمين مع الأسماء الواردة في قيود القصر، ولكنني لم أتوقف عند هذا الأمر لوجود مكان خاص بهذه المسألة في الكتاب. من جهة أخرى فإن الأحداث التي يتناولها الكتاب عموماً تصوّب «معلوماتنا» التاريخية. ورأيت هذا التصويب حتى في التفاصيل الصغيرة، مثل مقتل حسين أفندي كبير المنجمين، وصيد الأرانب الذي كان يقوم به محمد الرابع في قصر (ميراهور)، وحكاية نعيمة. وخطر ببالي أن كاتب الكتاب ـ الذي يبدو أنه يحب القراءة والخيال ـ قد تناول بعض المراجع المتعلقة بالموضوع واستفاد منها. يقول إنه عرف أوليا جلبي، ولكن يبدو أنه قرأ كتابه فقط، أو كما يبدو من أمثلة أخرى أن عكس هذا ممكن، وأعتقد أن العكس هو الصحيح فأعمل على عدم قطع أملي باقتفاء أثر الكاتب، ولكن بحثي في مكتبات اسطنبول بدد آمالي هذه كلها. لم أجد تلك الأطروحات والكتب المقدمة للسلطان محمد الرابع بين عامي 652 ـ 680 في مكتبة (طوب قابِ) ولا في المكتبات الأخرى التي اعتقدت أنها يمكن أن تكون قد أرسلت إليها. وجدتُ دليلاً واحداً فقط: ثمة آثار أخرى «للخطاط الأعسر» المذكور في الحكاية في تلك المكتبات. اقتفيت آثارها فترة ولكنني مللت، وبدأت تردني إجابات مثبطة للآمال من الجامعات الإيطالية التي كنت قد أمطرتها بالرسائل. وانتهت بالفشل محاولات بحثي في مقابر (غبزة) و(جنة حصار) و(أسكدار) اعتماداً على أن الكتاب قد كتبه

الكاتب دون تدوين اسمه عليه. تركت اقتفاء الأثر، وكتبت المادة الموسوعية اعتماداً على الحكاية نفسها، وحدث ما كنت أخشى منه، إذ لم يطبعوا المادة. ليس لعدم وجود دليل علمي عليها، بل لأن الشخص المكتوب عنه ليس شهيراً بما يكفي.

لعل هذا هو السبب الذي زاد فضولي نحو الحكاية. وصلت في تفكيري حيناً إلى الاستقالة، ولكنني أحب عملي وأصدقائي. وهكذا بقيت مدة أحكي حكايتي منفعلاً لمن أصادفه لا كأنني وجدتها في مكان ما، بل كأنني كتبتها. ولكي أجعلها محط اهتمام أضفت إليها بعض القيم الرمزية وفق حقائق عصرنا ويومنا... الخ. نتيجة كلماتي هذه اهتم الشبّان التوّاقون لمواضيع السياسة، والعنف، والشرق والغرب، والديمقراطية بهذه الحكاية، ولكنهم نسوا حكايتي بعد فترة قصيرة كما نسيها ندمائي بالشرب. أقحمت صديقاً لي، بروفيسوراً بمطالعة المخطوط، وعندما أعاده إليّ قال: تعج البيوت الخشبية في أزقة اسطنبول الخلفية بمثل هذه الحكاية، وثمة عشرات ألوف المخطوطات من هذا النوع. إذا لم يعتقد سكان تلك البيوت أنها مصاحف ورفعوها فوق خزائن عالية لابد أنهم مزّقوها صفحة صفحة لإشعال مدافئهم بها.

وهكذا قررت وبتشجيع من فتاة ذات نظارة لاتدع السيجارة من يدها، نشر هذه الحكاية التي قرأتها مرات عديدة. وسيرى القراء أنني لم أحاول إيجاد أسلوب ما عند ترجمتي للحكاية إلى اللغة التركية الحديثة. فبعد أن أقرأ جملة أو اثنتين من المخطوط الموضوع على طاولة، أنتقل إلى طاولة أخرى في غرفة أخرى وأدوّن المعنى المتبقي في عقلي. لم أضع عنوانَ الكتاب، بل وضعته دار النشر التي وافقت على طبعه. لعل من سيجد الإهداء في البداية سيسأل عما إذا كان له معنى خاص. أعتقد أن من أمراض عصرنا الرؤية أن لكل شيء علاقة بأي شيء. ولأنني واقع بهذا المرض أنشر هذه الحكاية.

فاروق دارون أوغلو

1

كنا مبحرين من البندقية إلى نابولي، عندما اعترضتنا السفن التركية. لم تكن سفننا إلا ثلاثاً، أما هم فلا تتناهى بأي شكل سواري سفنهم وسط الضباب. فجأة دب ذعر وطيش في سفينتنا. بدأ المجذفون - وأكثرهم أتراك ومغاربة - بإطلاق صيحات الفرح، وهذا ما وتّر أعصابنا. أداروا مقدمة سفينتنا نحو البر - إلى الغرب - كما فعلت السفينتان الأخريان، ولكننا لم نكن مسرعين مثلهما. لم يستطع قبطاننا بأي شكل إصدار أمر بجلد عبيد التجديف خشيةَ معاقبتهِ إذا وقع في الأسر. اعتقدت أن حياتي كلها تغيرت بعد ذلك بسبب جبن ذلك القبطان.

أما الآن فأعتقد أن حياتي كلها ستتغير حقيقةً لولا جبن قبطاننا في الفترة القصيرة تلك. يعرف كثيرون أنه ليس ثمة حياة يُخطط لها مسبقاً، وأن الحكايات كلها عبارة عن مجموعة من المصادفات المتسلسلة. ولكن رغم هذا فإن الذين يعرفون هذه الحقيقة عندما يلتفتون إلى الوراء في فترة معينة من فترات حياتهم، وينظرون، يقررون أن ما عاشوه مصادفة هو في الحقيقة اضطرار. أنا أيضاً مررت بفترة كهذه. أعتقد أن هذا هو الوقت الأنسب - في فترة كهذه - للتفكير بلون السفن التركية التي ظهرت وسط الضباب كأشباح، وأنا أعمل على كتابة حكايتي هذه على طاولة قديمة.

عندما رأى قبطاننا أن السفينتين الأخريين قد انسلتا من بين

السفن التركية، وتوارتا وراء الضباب، شعر بالأمل، واستطاع - نتيجة إلحاحنا - الضغط على أسرانا، ولكننا تأخرنا. ولم تعد السياط تَفرض أمراً على العبيد المتهيّجين بشعور التحرر. فجأة داهمتنا أكثر من عشر سفن تركية ملونة مخترقة جدار الضباب الموتر للأعصاب. عندئذ قرر قبطاننا خوض المعركة للانتصار على مخاوفه وخجله أكثر من الانتصار على العدو. فأمر بتجهيز المدافع وهو يأمر بجلد الأسرى، ولكن شعلة اندفاعه للمحاربة خمدت في فترة قصيرة. فقد وقعنا تحت قصف شديد، وإذا لم نستسلم بسرعة ستغرق سفينتنا، لذلك قررنا رفع راية الاستسلام.

نزلتُ إلى قمرتي ونحن ننتظر السفن التركية وسط البحر الهادئ. رتبت أغراضي كأنني أنتظر ضيوفاً أصدقاء، وليس عدواً سيغيّر حياتي كلها، وبدأتُ أقلّب صفحات كتبي التي أخرجتها من صندوق صغير وأنا شارد الذهن. دمعت عيناي وأنا أقلب صفحات مجلد دفعت قيمته ثمناً باهظاً في فلورانسا. وعندما سمعت الصياح ووقع الأقدام المنهمكة والجلبة فكرت بأنني سأبتعد عن الكتاب الذي بيدي بعد قليل، ولكنني لم أرد التفكير في هذا، بل فيما هو مكتوب في الصفحات. ثمة ماضٍ لا أريد إضاعته بين أفكار الكتاب وجملة معادلاته. عندما تمتمت بالأسطر الواقعة تحت عيني بشكل عشوائي كأنني أتمتم بدعاء، كنت أريد أن أحفر الكتاب كله في عقلي لكي أتذكر الكلمات الحبيبة التي حفظتها بمحبة، ولا أتذكر(هم) وأتذكر ما سيذيقونني إياه.

كنت في ذلك الوقت إنساناً آخر باسم آخر يناديه به أصدقاؤه وأمه وخطيبته. مازلت حتى الآن أحلم بنفسي أو ما أعتقد أنني هو في تلك الفترة، وأستيقظ متعرقاً. كان ذلك الإنسان المذكَّر بتلك الألوان الباهتة، وتلك البلاد المفترضة غير الموجودة، والحيوانات التي لم تعش أبداً، والألوان الحلمية لتلك الأسلحة التي لاتصدق، في الثالثة والعشرين من عمره. درس في فلورانسا والبندقية «العلم والفن» ويعتقد أنه يعرف في الفلك والرياضيات والفيزياء والرسم.

وطبعاً كان معجباً بنفسه، وإن كان قد قبل بما صُنع من قبل فهو يقلب شفتيه إزاءه كله، ولايشك بأنه يستطيع صنع ما هو أفضل منه، ولاشبيه له. ويعرف أنه أذكى من الآخرين، ويتفوق عليهم في الإبداع. باختصار إنه شاب عادي. يتحدث مع حبيبته عن ميوله ومشاريعه وعن العلم والعالم. كان يصعب عليّ الوثوق بنفسي عندما يُفرض عليّ تلفيق ماض كما يفعل كثيراً شاب إزاء إعجاب حبيبته به بشكل طبيعي. ولكن ما يسليني وجود عدة أشخاص سيدركون أن ذلك الشاب ليس أنا عندما يقرؤون ما كتبته هذا بصبر حتى نهايته. ولعل أولئك القراء الصابرين سيعتقدون أن ذلك الشاب الذي أخذ فرصة في حياته من قراءة كتب العشق سيستمر من حيث توقف، كما أعتقد أنا.

عندما كان المحاربون ينزلون إلى سفينتنا، وضعت كتبي في صندوقي وخرجت. كانت السفينة مثل يوم القيامة. جمعوا المسافرين جميعاً هنالك وشلّحوهم حتى صاروا عراة. في إحدى اللحظات خطر ببالي أن أقفز إلى البحر وسط هذه الفوضى، ولكن السهام ستتعقبني، وتصيبني وأموت. كما أنني لاأعرف مقدار بعدنا عن اليابسة. لم يصلوا إليّ في البداية. كان العبيد المسلمون المتحررون من السلاسل يطلقون صيحات الفرح، وبعضهم باشر بالانتقام مِن جلده بالسياط. بعد قليل وجدوني في قمرتي فدخلوا، وعبثوا بأغراضي وسرقوها. فتشوا صناديقي باحثين عن ذهب. بعد أن أخذوا أغراضي كلها وبعض كتبي، ثمة شخص قلّب صفحات كتاب أو اثنين متبقيين وهو شارد، ثم قادني إلى أحد القباطنة.

بعد ذلك تصرف معي الريّس الذي عرفت أنه جنفيزي الأصل، بشكل جيد، وسألني عما أفهم فيه. ولكي لا أساق إلى التجديف ذكرت معلوماتي الفلكية، وإمكانيتي إيجاد الاتجاهات ليلاً، ولكنهم لم يهتموا لهذا. بعد ذلك ادعيت أنني طبيب معتمداً على مجلد التشريح الذي تركوه لي. وعندما عرضوا عليّ واحداً قُطعت ذراعه وقلت لهم بأنني لا أفهم في الجراحة غضبوا، وكادوا يرسلونني إلى التجديف.

وحين سألني الريّس الذي رأى كتبي عما إذا كنت أفهم بالبول والنبض، وقلت له إنني أفهم فيها، تخلصت من التجديف وحررت بعض كتبي في آن معاً.

ولكن هذا التمييز كلفني غالياً. كرهني المسيحيون الآخرون المساقون إلى التجديف فوراً. أرادوا أن يقتلوني في العنبر الذي ننام فيه، ولكنهم كانوا يخافون لأنني أقمتُ بسرعة علاقة مع الأتراك. قبطاننا الذي أقعدوه على الخازوق مات للتو، أما الجلادون فقد قطعت آذانهم وأنوفهم، ووضعوا على طوافة، وأنزلوا إلى البحر ليكونوا عبرة للآخرين. عندما التأمت جروح بعض الأتراك التي داويتها اعتماداً على ذكائي بالتصرف، وليس على معلوماتي التشريحية صدّق الجميع أنني طبيب، حتى أن بعض الحاسدين الذين قالوا للأتراك بأنني لستُ طبيباً أروني جراحهم ليلاً في العنبر.

دخلنا إلى اسطنبول بمراسم مبهرجة. قيل إن السلطان الولد سيتفرج علينا. فرفعوا على الصواري الرايات، وتحتها علقوا أعلامنا وصور الأم مريم والصلبان بشكل مقلوب، وراح أشقياؤهم يرمونها بالسهام من الأسفل. وفجأة بدأت المدافع ترجّف الأرض والسماء. استمر الاحتفال - الذي تفرجتُ على معظمه من اليابسة حزيناً وملولاً ومستمتعاً - طويلاً لدرجة أن هناك من داخ تحت تأثير الشمس. عند المساء رسونا في (قاسم باشا). ضربونا بالسلاسل لكي يعرضوننا على السلطان، وألبسوا جنودنا دروعهم بالمقلوب ليبدوا مضحكين، ووضعوا في رقاب القباطنة والضباط حلقات حديدية، ثم قادونا إلى القصر وهم ينفخون في الأبواق والترومبيتات التي أخذوها من سفينتنا بشكل ساخر ومضحك. كان الناس المصطفون في الطرقات يتفرجون علينا بمتعة وفضول. ودون أن نرى السلطان، انتقى حقه من الأسرى، وفصلهم، ثم أخذونا إلى سجن (صادق باشا) في (غلاطة).

كان السجن مكاناً فظيعاً. ثمة مئات الأسرى يتفسخون وسط

القذارة داخل زنزانات صغيرة رطبة. وجدت هنالك أناساً كثيرين لممارسة مهنتي الجديدة. داويت بعضهم فتحسنوا، وكتبت وصفات للحراس الذين يعانون من آلام الظهر والأرجل. وهكذا فصلوني عن الآخرين وأدخلوني زنزانة تدخلها أشعة الشمس. كنت أنظر إلى وضع الآخرين فأشكر الله على وضعي، وبينما نحن هكذا في صباح أحد الأيام أخذوني مع الآخرين، وقالوا بأنني سأذهب إلى العمل. عندما قلت لهم إنني طبيب، وأفهم في العلم والطب، ضحكوا مني، وقالوا: الباشا يرفع جدران حديقته ويلزمه رجال. كنا نُضرب بالسلاسل، في الصباح الباكر. أخذوني خارج المدينة. وهناك بعد أن نجمع حجارة طوال النهار نربط بالسلاسل مع بعضنا البعض عند المساء، وخلال عودتنا إلى الزنزانة فكرتُ أن اسطنبول مدينة جميلة، ولكن يجب أن يكون الإنسان فيها سيداً وليس عبداً.

لكنني لستُ عبداً عادياً أيضاً. لم أعد أطبب العبيد المتفسخين في الزنزانة فقط، بل آخرين سمعوا أنني طبيب. كنتُ مضطراً لدفع قسم كبير من النقود التي تقاضيتها أجرة تطبيب للحراس، ولناظر العبيد الذي كان يُخرجني إلى الخارج. وبالنقود التي كنت أخفيها عنهم تلقيتُ دروساً في اللغة التركية. أستاذي رجل مسنٌ طيّب يقضي حوائج صغيرة للباشا. عندما رأى أنني تعلمت التركية بسرعة فرح، وكان يقول لي إنني سأُسلم في فترة قصيرة. وفي كل مرة كان يأخذ أجرة الدرس خجلاً، وكنت أعطيه نقوداً ليجلب لي طعاماً لأنني كنت مصمماً على العناية بنفسي.

في ليلة ضبابية جاء إليّ الناظر، وقال إن الباشا يريد رؤيتي. دهشت، وانفعلت، وجهزت نفسي بسرعة. اعتقدتُ أن أحد أقربائي الشاطرين في بلدي ـ لعله أبي أو حمي المستقبلي ـ أرسل ما يحررني. وبينما كنا نسير في أزقة ملتوية وسط الضباب اعتقدت أنني سأصل إلى بيتنا، أو أنني سأجدهم أمامي كمن يستيقظ من حلم. وأحياناً أعتقد أنهم وجدوا وسيطاً أرسلوه إلى هنا وأنا وسط الضباب، وسيضعونني في سفينة ويرسلونني إلى بلدي. ولكنني

عندما دخلت إلى منزل الباشا فهمت أنني لن أتحرر بالسهولة تلك. كان الناس هناك يسيرون على رؤوس أصابعهم.

بداية وضعوني في بهو، إثر ذلك ـ بعد أن انتظرت ـ أدخلوني إلى غرفة. على مقعد خشبي متطاول وصغير يتمدد رجل رَبع أليف مغطى ببطانية، وبجانبه رجل ضخم. المتمدد هو الباشا، ناداني إلى جانبه. تحدثنا. سألني، فقلت له إنني في الحقيقة درست الفلك والرياضيات وقليلاً من الهندسة، ولكنني أفهم في الطب، وتحسّن كثيرون على يدي. هو يسأل، وأنا أشرح له المزيد، ولكنه قال لي: بما أنك تعلمت التركية بهذه السرعة فلابد أنك ذكي، ثم أضاف: إن لديه مشكلة، ولم يجد الأطباء الآخرون حلاً لها، وقد أراد أن يجربني عندما سمع بي.

بدأ الباشا يشرح مشكلته إلى حد أنني اضطررت للاعتقاد بأن أعداءه خدعوا الله بافترائهم عليه، فأصابه بمرض خاص لم يُصب به غيره على وجه الأرض. مع أن مرضه هو ضيق النَفَس الذي نعرفه جميعاً. سألته عن تفاصيل حالته جيداً، واستمعت إلى كحَّته، بعد ذلك نزلتُ إلى مطبخه، وحضّرت من النعناع حبوباً خضراء، وشراباً للسعال. ولأن الباشا خاف أن أسممه، شربتُ جرعة من الشراب، وبلعتُ حبة. طلب مني أن أخرج من المنزل بحذر دون أن يراني أحد، وأن أعود إلى السجن. بعد ذلك شرح الناظرُ الأمرَ لي: لم يُرد الباشا أن يغار مني الأطباء الآخرون. بعد يومين عدت إليه، واستمعت إلى كحَّته، وأعطيته العلاج نفسه. فرح مثل الأطفال للحبِّ الملوّن الذي وضعته في كفه. عندما عدت إلى زنزانتي دعوت الله أن يتحسن. في اليوم التالي هبت ريح عاصفة. وفكرت بأن الإنسان لابد له أن يتحسن رغماً عنه في هذا الجو، ولكن لم يطلبني أحد.

بعد شهر، عندما استدعوني في منتصف الليل، كان الباشا واقفاً على قدميه وحيوياً. فرحتُ عندما وجدته يتنفس بسهولة، ويؤنب البعض. حين رآني قال: إنه ممتن لي، وأنه شفي على يدي، وأنا طبيب جيد. وسألني عما أريده منه. كنت أعرف أنه لن يحررني

ويرسلني بسرعة، فاشتكيتُ من وضع الزنزانة. حكيت عن إمكانيتي للعمل في الطب والفلك والعلم، وإمكانية مساعدتي لهم، وقلت بأنهم يتعبونني بأعمال شاقة دون جدوى. لا أدري كم كان يستمع إليّ، وما الذي لم يسمعه مني. قسم كبير من النقود التي أعطاني إياها في كيس أخذها مني الحراس.

في إحدى الليالي بعد أسبوع جاءني الناظر، وفك سلاسلي بعد أن أقسمت أنني لن أهرب. كنت أخرج إلى العمل ولكن رؤساء مجموعات الأسرى لم يشغّلوني في بعض الأحيان. حين جاءني الناظر بعد ثلاثة أيام جالباً لي ألبسة جديدة، أدركت أن الباشا يرعاني.

كانوا يطلبونني في الليل إلى بعض المنازل. أقدّم العلاج للقراصنة المسنين المصابين بالروماتيزم، وللجنود الشبان المصابين بحرقة في المعدة. وكنت أسحب دماً من المصابين بالحكة والمصفرّين والمصابين بالصداع. وفي إحدى المرات عندما شفي ابن أحد الخدم الذي كان مصاباً بالتأتأة بعد أسبوع من تناوله الشراب الذي حضّرته له، وبدأ يتكلم، أسمعني شعراً.

وهكذا مر الشتاء. وفي بداية الربيع علمت أن الباشا الذي انقطع سؤاله عني شهوراً قد أبحر مع الأسطول في البحر المتوسط. حين شهد شخصان يأسي وغضبي طوال أيام الصيف الحارة، قالا لي: عليّ ألاآتذمر من وضعي، وأنني كسبت نقوداً جيدة من الطب. عبدٌ قديم أسلم قبل سنوات طويلة وتزوج نصحني بالهرب، وقال إنهم يلهّون العبيد الذين يفيدونهم طويلاً، ولايسمحون لهم نهائياً بالعودة إلى بلادهم، وإذا أسلمت مثله يمكنني أن أتحرر، وهذا كل ما أستطيع عمله. ولاعتقادي بأنه يستدرجني بالكلام لذلك قال لي هذا، قلتُ له: أنا لا أنوي الهرب أبداً. وليست النية ما كان ينقصني بل الجرأة. إذ يلقى القبض على الهاربين جميعاً قبل أن يبتعدوا كثيراً. بعد ذلك كنت أنا الذي أدهن جسم أولئك المنحوسين بالمرهم ليلاً، بعد أن يضربوا بالعصي ضرباً مبرحاً.

مع اقتراب الخريف عاد الباشا من الحرب، وحيّا السلطان بإطلاق المدافع، وعمل على إفراح البلد كما فعل في السنة الماضية، ولكن من الواضح أنه لم يقض موسماً جيداً كما في السنة الماضية. قليل جداً من الأسرى استطاعوا جلبهم إلى السجن. وقد علمنا فيما بعد أن البندقيين أحرقوا لهم ست سفن. كنتُ أقول لنفسي علني أجد طريقة أحدّث فيها الأسرى، لأتلقى أخباراً عن بلدي، ولكن أكثرهم إسبان: صامتون، جهلة، وخائفون. ليس بوسعهم الحديث إلا لطلب المساعدة، وتسوّل الطعام. أحدهم شد انتباهي. قُطعت ذراعه ولكنه مفعم بالأمل. كان يقول إن حادثة مشابهة وقعت لأحد أجداده، وتحرر بعد ذلك، وقد كتب بيده غير المقطوعة رواية عن الفرسان، وهو مؤمن أنه سيتحرر ويفعل الأمر نفسه. بعد ذلك، في السنوات التي كنت ألفق فيها الحكايات من أجل العيش، تذكرت هذا الرجل الذي يحلم بالعيش من أجل تخيل الحكايات. قبل مرور زمن طويل انتشر مرض سارٍ في السجن، ومات أكثر من نصف العبيد بذلك المرض، وقد أغرقت الحراس بالرشوة كي أبقى بعيداً عنه.

بدؤوا بأخذ من تبقى حياً للعمل في أمكنة أخرى. لم أكن أذهب معهم، لكنهم كانوا يحكون لي في المساء. قالوا: يأخذونهم إلى مكان بعيد في آخر الخليج، ويضعونهم تحت تصرّف معلمي النجارة والخياطة والدهان، ويشغّلونهم بالأعمال اليدوية، حيث يعملون من الورق المقوى سفناً وأقلاماً وحصوناً وقلاعاً. بعد ذلك علمنا أن الباشا سيأخذ ابنة الوزير الأول لابنه.

صباح أحد الأيام أخذوني إلى منزل الباشا. ذهبتُ معتقداً أن ضيق النَفَس قد عاد إلى الباشا. أدخلوني إلى مكان، وأبقوني أنتظر لأن الباشا مشغول. بعد مدة فُتح الباب الآخر للغرفة، ودخل رجل يكبرني بخمس أو ست سنوات. عندما نظرت إلى وجهه دهشت، وخفت فجأة.

2

كان الداخل إلى الغرفة يشبهني إلى حد لايصدّق. كأنني هناك. هذا ما فكرت فيه لأول وهلة. كأن أحدهم يريد أن يلعب معي لعبة فأدخلني مرة أخرى من الباب المقابل للباب الذي دخلتُ منه، ويقول لي: انظر، في الحقيقة يجب أن تكون على هذا النحو، وأن تدخل من الباب هكذا، وأن تحرك ذراعيك ويديك بهذا الشكل، وأن ينظر إليك الآخرون في الغرفة بهذه الطريقة! عندما تقابلنا، تبادلنا التحية. لم تبدُ عليه الدهشة كثيراً. عندئذ قررت أنه لايشبهني كثيراً، وهو ملتح. كأنني نسيت ما يشبهني، ويشبه وجهي فيه. عندما جلس مقابلي خطر ببالي أنني لم أنظر إلى المرآة منذ سنة.

بعد قليل فُتح الباب الذي دخلتُ منه، وطلبوه من الداخل. عندما كنت أنتظره فكرت أن هذه ليست لعبة حاذقة معدة لي، بل هي خيالات عقلي المتعب. لأنني في تلك الأيام كنت أتخيل باستمرار: أنني عدت إلى بيتي، واستقبلني الجميع، بعد أن أطلقوا سراحي، لكنني في الحقيقة كنت ماأزال نائماً في قمرتي، وأن كل ما جرى لي هو مجرد حلم، فأسلّي نفسي بهذه الأمور. وفي لحظة تفكيري بأن هذه حكاية من تلك الحكايات قد تحققت، وأن كل شيء تغيّر فجأة وعاد إلى نظامه القديم، فُتح الباب وطلبوني من الداخل.

كان الباشا واقفاً على مبعدة خلف شبيهي. قبلتُ طرف ثوبه. حين سألني عن حالتي، قلت لنفسي: احكِ له عن الضيق الذي أعاني

منه في الزنزانة، وعن رغبتي بالعودة إلى بلدي، ولكنه لم يستمع إليّ. أخبرني الباشا بأنه يتذكر قولي بأنني أفهم بالعلم والفلك والهندسة. وسألني عما إذا كنتُ أفهم بالمفرقعات المقذوفة في الهواء وبالبارود؟ قلت له فوراً: إنني أفهم بها. ولكن عندما تقابلت عيناي بعيني الآخر شككت بأن فخاً ينصب لي.

يريد الباشا أن يكون العرس الذي سيقيمه متفرداً. وستحضّر عروض المفرقعات، ولكن هذه يجب ألا تشبه سابقاتها. وقد أقيم عرض كهذا من قبل عند ولادة السلطان، أقامه مالطيّ مات فيما بعد، وشبيهي الذي أطلق عليه الباشا لقب «الأستاذ» عمل معه، وهو يفهم في هذا العمل، وفكر بإمكانية مساعدتي له، وأن كلاً منا سيكمل الآخر، وأن الباشا سيفرحنا كثيراً إذا قدمنا عرضاً جيداً. حاولتُ القول بأنني أريد العودة إلى بلدي معتقداً أن هذا هو الوقت المناسب، ولكن الباشا سألني عما إذا كنت قد ضاجعت النساء منذ قدومي حتى الآن، وإذ تلقى جوابي قال: ما فائدة الحرية إذا كنت لا أعمل هذا الأمر! كان يتحدث بكلمات يستخدمها الحراس. يبدو أنني نظرت إليه نظرة معتوه فضحك مقهقهاً. بعد ذلك التفتَ إلى شبيهي الذي دعاه «الأستاذ» وحمّله مسؤوليتي وخرجنا.

صباحاً، عندما دخلنا إلى بيت شبيهي، كنتُ أفكر أنه ليس لدي ما أعلِّمه إياه. كان يقول إن معلوماتي لاتزيد عن معلوماته، فوق هذا فإن معلوماتنا متوافقة. المسألة كلها هي إيجاد مزيج كافوري جيد. لهذا فإن ما سنقوم به هو الوزن بالميزان والمكاييل، وإشعال المزيج المحضر في الليل عند السور، واستنتاج النتائج من مشاهداتنا. كنا ننتظر بفضول وانفعال شديدين واقفين تحت الأشجار في الظلام عندما كانوا يشعلون البارود الذي حضّرناه، وفيما بعد عندما كنا نعمل من أجل ذلك السلاح الخيالي في النهار، بدأتُ أدون ما أراه على دفتر صغير في ضوء القمر أحياناً، وفي الظلام الدامس أحياناً أخرى. وفي آخر الليل كنا نذهب إلى بيت «الأستاذ» المطل على الخليج، ونناقش النتائج مطولاً.

كان بيته صغيراً ومملاً وكريهاً. يُدخل إليه من زقاق متعرج فيه طين يتشكل بماء قذر، لم أستطع معرفة مصدره في أي وقت. يكاد يخلو البيت من الأغراض، ولكنني كلما دخلت إليه أشعر بضيق غريب. لعل سبب ذلك الضيق هو ذلك الرجل الذي لايحب الإسم المنتقل إليه من جده، ويريدني أن أناديه بلقب «الأستاذ»: كان يراقبني كأنه يريد أن يعرف عني شيئاً ما، ولكنه لايعرف ما هو ذلك الشيء في تلك الأثناء. ولأنني لم أعتد الجلوس على الفرش الممدودة عند أسفل الجدار، كنت أقف حين نناقش تجاربنا، وهكذا يستطيع الفرجة عليّ إلى حد التملّي ولو في ضوء خافت.

أقلقني عدم انتباهه للشبه الذي بيننا حين كنت أشعر أنه ينظر إليّ. مرة أو اثنتين شعرت أنه يدرك تشابهنا ويتصرف متجاهلاً هذا الأمر. كأنه يلعب لعبة أو يجربني أو يحصل على معلومات لا أستطيع فهمها، لأنه في الأيام الأولى كان ينظر إليّ دائماً بتلك الطريقة: يتعلم أمراً ما، وعندما يتعلمه يزداد فضوله، ويبدو أنه متردد في خطو خطوة جديدة من أجل ترسيخ تلك المعلومة. كأن الفراق الذي يجعل داخل البيت خانقاً هو الذي يضايقني! على الرغم من أن خجله يمنحني جرأة، لكنه لايريحني. في إحدى المرات ـ بينما كنا نناقش تجاربنا، وفي مرة أخرى ـ سألني عن سبب عدم اعتناقي الإسلام حتى ذلك الوقت، وعندما فهمت أنه يريد جرّي إلى نقاش غير واضح تماماً، تمالكت نفسي. فهمت أنه يستصغرني إذ شعر بخجلي، وهذا أغضبني. لعل الأمر الوحيد الذي كنا متفقين عليه في تلك الأيام هو أن كلاً منا يستصغر الآخر. كنت مسيطراً على نفسي مفكراً بإمكانية سماحهم لي بالعودة إلى بلدي فيما إذا أقمنا عرض المفرقعات دون أذى أو بلاء.

في إحدى الليالي قال الأستاذ منفعلاً بتحقيق نصر في ارتفاع مفرقعة إلى علو شاهق: يمكنه تحضير مفرقعة تصل إلى القمر في أحد الأيام، والقضية كلها تكمن في إيجاد خلطة البارود اللازمة، وصب الحافظة التي سيوضع فيها ذلك البارود. كنت أقول له إن

القمر بعيد جداً، ولكنه قاطعني قائلاً إنه يعرف أن القمر بعيد جداً، ولكنه أليس أقرب النجوم إلى الأرض؟ عندما وافقته على هذا لم يرتح، بل شعر بالقلق أكثر، ولكنه لم يقل شيئاً آخر.

بعد يومين، وفي منتصف الليل سأل مرة أخرى: كيف يمكنني الوثوق إلى هذا الحد بأن القمر هو النجم الأقرب؟ لعلنا ننساق وراء خداع بصري. عندئذ تحدثت معه أول مرة عن معلومات الفلك التي تلقيتها، وشرحت له باختصار عن القواعد الأولية التي طرحها بطليموس حول (الكوزموغرافيا)(*). كان يستمع إليّ بفضول ولكنه لايقدم على قول شيء يفصح عن فضوله، بعد مدة ـ عندما سكت ـ قال إن لديه معلومات عن بطليموس، ولكن هذا لم يغيّر شكوكه بإمكانية وجود نجوم أقرب من القمر. ومع اقتراب الصباح كان يتحدث عن حصوله منذ الآن على دلائل عن ذلك النجم.

في اليوم التالي أعطاني كتاباً مخطوطاً بخط سيء. استطعت فهمه على الرغم من ضعف لغتي التركية. لم يكن تلخيصاً للمجسطي بل تلخيص تلخيصه على ما أعتقد. لم يشدني فيه سوى الأسماء العربية للكواكب، ولم أكن عندئذ في حالة تجعلني أتعلق بها. غضب الأستاذ عندما رآني قد وضعت الكتاب جانباً، وأنه لم يثرني. قال إنه دفع سبع ذهبيات ثمناً لهذا المجلد ومن الصواب أن أَدَعَ إعجابي بنفسي، وأقلب صفحات الكتاب مستعرضاً. ومثل تلميذ عاقل فتحت الكتاب من جديد، وبينما كنت أقلب صفحاته وجدتُ رسماً تخطيطياً بدائياً. وُضعت الكواكب في كرات مرسومة بشكل بسيط. وفي الحقيقة كان توزيع الكرات صحيحاً، ولكن لم يكن لدى الرسام فكرة عن موضوع النظام الذي يربط فيما بينها. بعد ذلك تناهى إلى بصري نجم صغير بين القمر والأرض، عندما دققت أكثر وجدت من الحبر الطازج أن الكتابة قد أضيفت فيما بعد. وبعد أن استعرضت

(*) علم يستفيد من القواعد الأساسية للفلك والرياضيات والفيزياء للبحث في مظهر الكون وتركيبه العام ـ المترجم.

الكتابة حتى نهايتها أعدته للأستاذ. قال إنه سيجد ذلك النجم الصغير. لم يبد عليه أنه يمزح. لم أنبس. ثمة صمت وتّر أعصابه كما وتّر أعصابي. ولأننا لم نستطع جعل أية مفرقعة تصل إلى علو أكبر لم نتحدث عن الفلك مجدداً، ولم نفتح هذا الموضوع مرة أخرى. وبقي سر نجاحنا الصغير مجرد مصادفة لأننا لم نستطع فكه.

لكننا حصلنا على نتائج جيدة جداً على صعيد شدة الضوء واللهب ولمعانهما، وعرفنا سرهما: كان الأستاذ قد وجد في أحد دكاكين العطارين في اسطنبول التي تجول عليها واحداً واحداً مسحوقاً لم يعرف اسمه، وقررنا أن هذا المسحوق المائل إلى الصفرة والذي يعطي بريقاً رائعاً هو مزيج الكبريت وكبريتات النحاس. فيما بعد، أضفنا كل مادة خطرت ببالنا لإعطاء ذلك البريق ألواناً، ولكننا لم نحصل سوى على لون قريب من البني، وأخضر باهت. وبحسب قول الأستاذ فإن ما تحقق حتى الآن هو أفضل ما عُمل في اسطنبول.

وهكذا كان العرض الذي قدمناه في الليلة الثانية من الاحتفال بالعرس هو الأفضل باعتراف الجميع، بمن فيهم أعداؤنا الذين يحيكون المؤامرات من ورائنا للحصول على عملنا هذا. وعندما قالوا أن السلطان قد جاء للفرجة علينا من الشاطئ الآخر للخليج انفعلت كثيراً، وارتعدت خوفاً من الوقوع في الخطأ وعدم ذهابي إلى بلدي بعد سنوات طويلة، فصرت أدعو عندما يقولون: ابدؤو! بداية أشعلنا المفرقعات غير الملونة المنطلقة عمودياً من أجل تحية الضيوف، والتحضير للعرض. بعد ذلك بدأنا بالنظام المدور الذي أطلقنا عليه الأستاذ وأنا اسم «الطاحونة». فجأة صارت السماء حمراء وصفراء وخضراء، وصدرت فرقعة مخيفة كانت أجمل مما توقعنا. ومع ارتفاع المفرقعة كانت الدائرة تدور وتدور متسارعة، وفجأة غدا المكان كضوء النهار. للحظة اعتقدت أنني في البندقية، وأنني في الثامنة من عمري، وأتفرج على عرض كهذا لأول مرة، وأنني حزين كما أنا الآن لأن ألبستي الحمراء الجميلة ألبسوها

لأخي الأكبر لأن ألبسته تمزقت قبل يوم في مشاجرة. كانت المفرقعات تنفجر بلون أحمر مثل لون ألبستي ذات الأزرار الكثيرة التي لم ألبسها، وأقسمت ألا ألبسها، وأزرار الألبسة الضيقة على أخي الكبير كانت باللون ذاته.

بعد ذلك بدأنا بالنظام الذي أسميناه صنبوراً. إذ بدأ اللهب ينصبُّ في البداية من حافة سطح على ارتفاع خمس خطوات. لابد أن الذين على الشاطئ المقابل كانوا يرون اللهب بشكل أفضل، وعندما بدأت المفرقعات تنطلق من فوهة الصنبور لابد أنهم انفعلوا بقدر ما انفعلنا نحن، ولكننا لانريد أن يهدأ انفعالهم: لقد حركوا القوارب على سطح الخليج. في البداية انطلقت المفرقعات مشعلة القلاع والحصون والأبراج المصنوعة من الورق المقوى. وهذا المشهد يمثل الانتصارات التي تحققت في الماضي. وحين مرت السفن الأسيرة سنة وقوعي بالأسر، أمطرت السفن الأخرى شراعيتنا بالمفرقعات، وهكذا عشت مرة أخرى يوم وقوعي بالأسر. وبينما كانت السفن الكرتونية تحترق وتغرق بدأ يتعالى صراخ: «الله، الله!» من الشاطئين. بعد ذلك مرّرنا تنيناتنا ببطء، وكان اللهب ينبعث من أفواهها ومناخرها وآذانها. جعلناها تتعارك. وكما خططنا لم تقترب من بعضها البعض، وجعلنا الجو أكثر حرارة بالمفرقعات التي أطلقناها من الساحل. بعد ذلك عندما أظلمت السماء، بدأ رجالنا الراكبون في المراكب بتحريك المسننات لترتفع التنينات ببطء نحو السماء. وبهذا بدأ صراخ الدهشة والخوف. وعندما تعاركت التنينات مرة أخرى أشعلت المفرقعات كلها. يجب أن تكون الفتائل الموزعة في جسم تلك المخلوقات قد أُشعلت في الوقت المناسب، فقد تحول المكان إلى ما يشبه الجحيم كما أردنا تماماً. فهمت أننا نجحنا من بكاء شديد لطفل قربنا. لقد نسيّ الأب ابنه وهو ينظر فاغر الفم إلى السماء. كنت أفكر أن بإمكاني العودة إلى بلدي حينئذ. فجأة دخل إلى وسط الجحيم مخلوق أسميناه: «الشيطان» وتحته قارب أسود غير مرئي. كنا قد ربطنا إليه مفرقعات كثيرة إلى حد

أننا خشينا من انفجار القارب كله مع رجالنا، ولكن الأمور سارت في نصابها. عندما استهلكت التنينات لهبها وهي تتوارى وسط الظلام قفز الشيطان إلى السماء بمفرقعاته المُشعلة. بعد ذلك بدأ ينثر كرات لهب متفجرة على مراحل. انفعلت معتقداً أننا أغرقنا اسطنبول كلها بالإرهاب والخوف. كأنني خفت أيضاً، وكأنني في النهاية بدأت بعمل ما كنت أتوق لعمله بجرأة دون أهمية للمدينة التي نحن فيها: كنت أريد أن يبقى الشيطان هناك معلقاً فوق الجميع يقذف لهبه طوال الليل. إنما بعد أن تمايل نحو اليمين ونحو اليسار قليلاً نزل إلى الخليج دون المساس بأحد جاعلاً الجميع على الشاطئين يتصايحون. كان اللهب ينبعث منه عندما غاص في مياه الخليج.

صباح اليوم التالي أرسل الباشا إلى الأستاذ كيساً من الذهب كما في الحكايات. وأبلغه بأنه مسرور من العرض ولكنه استهجن انتصار الشيطان. استمرينا بالعرض عشرة أيام. حيث كنا نهاراً نأمر بإصلاح المجسمات المحروقة، ونصمم ألعاباً جديدة، ونجعل الأسرى المجلوبين من الزنزانات يحشون البارود. عَمِيَ عبد لاحتراق وجهه مع عشرة أكياس من البارود.

حين انتهت احتفالات العرس لم أعد أرى الأستاذ. ارتحت لأنني تخلصت من غيرة عينيّ هذا الرجل الفضولي الذي يراقبني طوال اليوم، ولكن عقلي كان متعلقاً بالأيام الحيوية التي قضيتها معه. عزمت على أن أتحدّث للجميع عندما أعود إلى بلدي عن هذا الرجل الذي يشبهني إلى حد كبير، وعن عدم تحدثه بهذا الشبه رغم هذا. كنت في زنزانتي أعتني بالمرضى من أجل تمرير الوقت عندما سمعت أن الباشا يطلبني، فذهبت راكضاً أكاد أطير من الفرح. في البداية مدحني بسرعة قائلاً إن عرض المفرقعات سرّ الجميع وأسعدهم، وإنني موهوب جداً، وما شابه ذلك. ثم قال فجأة: إذا صرتَ مسلماً سأحررك فوراً. ارتبكت وصُرعت، وقلت إنني أريد الذهاب إلى بلدي، وفي حالة الصرع تلك أقدمت على عمل مهين كالحديث تأتأة عن أمي وخطيبتي. أعاد الباشا عليّ الأمر نفسه

وكأنه لم يسمع شيئاً. سكتُ قليلاً. لا أدري لماذا خطر ببالي أصدقاء الطفولة الكسولون والمشاكسون المكروهون الذين يرفعون أيديهم على آبائهم. وعندما قلت إنني لن أغيّر ديني غضب مني الباشا، فعدت إلى زنزانتي.

بعد ثلاثة أيام طلبني الباشا مرة أخرى. كان منشرحاً هذه المرة. ولأنني لم أستطع استنتاج فيما إذا كان تغيير ديني يفيدني في الهرب أم لا، لم أستطع الوصول إلى قرار. سألني الباشا عن رأيي، قائلاً بأنه سيزوجني من فتاة جميلة! سيطر عليّ الشعور بالجرأة، وعندما قلت إنني لن أغيّر ديني دهش الباشا. بعد ذلك قال إنني مخبول. في محيطي ليس ثمة من أخجل منه لأنني غيرت ديني. بعد ذلك تحدث قليلاً عن الإسلام. وحين سكتُ أعادني إلى زنزانتي.

عندما ذهبتُ للمرة الثالثة لم يدعوني أقابل الباشا. سألني أحد المشرفين عن قراري. لعلني غيرت قراري، لا لأن مجرد مشرف سألني عن هذا! قلت إنني في هذه الأثناء غير مستعد لتغيير ديني.

أمسكني المشرف من ذراعي، وأنزلني إلى أسفل. وهنالك سلمني لآخر. وكان هذا رجلاً طويلاً ونحيلاً مثل الذين أراهم كثيراً في أحلامي. تأبطني مشفقاً كما لو أنه يساعد كسيحاً، وبينما كان يصطحبني إلى إحدى زوايا الحديقة انضم إلينا شخص حقيقي بحيث تستحيل رؤيته في الأحلام. كان ضخماً. توقف الاثنان عند أسفل الجدار، وربطا يدي، وكان معهما بلطة ليست ضخمة، وقالا: إن الباشا أمر بضرب عنقي إذا لم أُسلم. فوقعت في مأزق.

كنت قد فكرت بأن الأمر لن يتم بهذه السرعة. كانا ينظران إليّ مشفقين. لم أقل شيئاً. رحت أقول لنفسي: لو أنهما لا يسألاني مرة أخرى. لكنهما سألاني. وهكذا صار ديني فجأة أمراً أبذل حياتي في سبيله، وهذا ما جعلني أعطي أهمية لنفسي من جهة، وأشفق عليها مثلما يشفق هذان الضاغطان علي لأخرج من ديني من جهة أخرى. حين أجبرت نفسي على التفكير في أمر آخر تخيلت ما رأيته من

نافذة تطلّ على حديقة بيتنا الخلفية: ثمة دراق وكرز في صينية مطعّمة بالصدف على منضدة، وخلف المنضدة مقعد متطاول مغطى بحصيرة، وعليها مخدات ريش طيور بلون إطار النافذة الأخضر، وأرى في المدى الأبعد جباً حطت على حافته سنونوة، وشجرتي كرز وزيتون، وعلى غصن شجرة الجوز التي تتوسطهما، أرجوحة مربوطة بحبال طويلة تتحرك بشكل هادئ بفعل النسيم. عندما سألاني مرة أخرى، قلت: لن أغيّر ديني. كان هناك جذع شجرة ضخم. أجثياني على ركبتي، وأوكآ رأسي على الجذع. بداية أغمضت عيني، ولكنني فتحتهما بعد ذلك. تناول أحدهما البلطة. قال الآخر: علني ندمت. أنهضاني، وقالا: إن عليّ التفكير أكثر قليلاً.

بينما كنت أفكر بدأا بحفر التراب قرب الجذع. فكرت بأنهما سيدفناني هناك فوراً. الموت الذي أفكر فيه أيقظ في نفسي خشية الدفن دون موت. وبينما كنت أفكر بإمكانية إعطائي قراراً ريثما يكملا حفر القبر، اقتربا مني بعد أن حفرا حفرة صغيرة. فكرت أنه من الخبل الشديد أن أموت هنا، ونويت أن أُسلم، ولكن ليس ثمة وقت لهذا الأمر. إذا عدت إلى زنزانتي التي بحجم الجيب، واعتدت عليها، سأقضي الليل كله بالتفكير، ويمكنني الوصول إلى قرار بتغيير ديني حتى الصباح، وليس فوراً.

أمسكاني، وجرّاني، وأجثياني. قبل أن يوكئا رأسي على جذع الشجرة رأيت أحدهم عابراً بسرعة كبيرة بين الأشجار، فدهشت. كأن لحيتي طالت ورحت أسير دون أن تلمس قدماي الأرض. قلت: لأنادي لصورتي العابرة بين الأشجار وهي ذاهبة، فلم يخرج صوتي. اتكأ رأسي على جذع الشجرة. عندئذ فكرت بأن ما يقترب مختلف عن النوم. أرخيت نفسي منتظراً. برد ظهري، وبردت رقبتي من الخلف. لا أريد أن أفكر، ولكنني كنت أفكر شاعراً بالبرد. بعد ذلك أنهضاني، وتحدثا فيما بينهما: سيغضب الباشا كثيرا! وبَّخاني عندما كانا يفكان يدي، وقالا: إنني عدو الله ونبيه محمد، ثم أصعداني إلى المنزل.

بعد أن تركني الباشا أقبل طرف ثوبه راضاني قائلاً بأنه أحبني، لأنني لم أرجع عن ديني ولو كلفني هذا حياتي. بعد ذلك بدأ يتحدث يميناً وشمالاً: إنني أعاند دون جدوى، والإسلام دين مقدس. مع استمراره بالكلام تصاعد غضبه، وقال إنه مصمم على عقابي. بعد ذلك قال لي إنه وعد أحدهم، وفهمت أن هذا الوعد هو حمايتي مما يمكن أن يقع لي، في النهاية استنتجت مما شرح أن الذي وعده رجل غريب الأطوار، وهو الأستاذ. عندئذ قال الباشا إنه أهداني للأستاذ. في البداية كنت أنظر إليه دون أن أفهم أشياء كثيرة، فشرح لي الباشا: صرت عبداً للأستاذ، وأعطاه وثيقة بهذا، وأصبح أمر تحريري بيد الأستاذ، وبعد ذلك يمكنه أن يفعل بي ما يشاء. ثم خرج الباشا من الغرفة.

عرفت أن الأستاذ في المنزل وهو ينتظرني في الأسفل. عندئذ فهمت أنه الذي رأيته عابراً في الحديقة بين الأشجار. ذهبنا إلى بيته سيراً على الأقدام. قال إنه يعرف منذ البداية أنني لن أخرج عن ديني. حتى أنه حضّر لي غرفة في بيته. سألني عما إذا كنت جائعاً، لكن مازال الخوف من الموت مسيطراً عليّ، لذلك لم أكن في حالة تسمح لي بتناول الطعام، إنما تناولت لقيمات من الخبز واللبن الرائب الذي وضعه أمامي. وبينما كنت أمضغ لقيماتي كان الأستاذ يتفرج علي مستمتعاً. كان ينظر إليّ نظرة الفلاح الذي اشترى لتوه حصاناً من السوق، ويعلفه مفكراً بما يمكن أن يشتغل عليه في المستقبل. وكثيراً ما تذكرت تلك النظرة قبل أن يهديني الباشا ساعة وأدفن نفسي في قواعد الكوزموغرافيا.

فيما بعد قال بأنني سأعلّمه كل شيء، ولهذا السبب طلبني من الباشا، ولايمكنه أن يحررني إلا بعد هذا. كان من الضروري مرور أشهر لمعرفة المقصود «بكل شيء». «كل شيء» هو ما تعلمته في المدارس، وهو العلم والهندسة والطب والفلك الذي يُعلّم في بلدي! وهو أيضاً المكتوب في الكتب التي في زنزانتي وقد أمر بجلبها في اليوم التالي، وكل ما سمعته ورأيته أيضاً، وأفكاري حول الأنهار

والبحيرات والغيوم والبحار، وأسباب الزلازل والرعد أيضاً... وأضاف: إن النجوم والكواكب هي أكثر ما يثير فضوله عندما يقترب الوقت من منتصف الليل. كان ضوء القمر ينبعث إلى الداخل عبر النافذة، فقال لي إنه يحب الوصول إلى دليل قطعي حول وجود ذلك النجم بين القمر والأرض أو عدم وجوده. وبعيني الخائفتين اللتين عايشتا الموت طوال اليوم رحت أتفرج على التشابه المخرّب للأعصاب دون إرادتي. لم يعد الأستاذ يستخدم كلمة «التعليم»: سنبحث معاً. سنجد معاً. سنسير معاً.

وهكذا بدأنا ندرس مثل أخوين جيدين، أو تلميذين نجيبين يدرسان حتى عندما لايكون الكبار في البيت ويراقبونهما من شقوق الأبواب. بداية شعرت بنفسي ـ بنية سليمة ـ أخاً كبيراً رضي باستعراض معلومات أخيه الصغير الكسول لجعله يلحق به. أما الأستاذ فكان يتصرف مثل أخ صغير ذكي يعمل على إثبات أن ما يعرفه أخوه الكبير ليس شيئاً عظيماً. فرق المعلومات بيننا بالنسبة إليه هو عدد المجلدات التي جلبها من الزنزانة وطبّقها في طرف خزانة، وما أتذكره من مجلدات. وباجتهاده الأكثر من عادي، وذكائه في تعلم الإيطالية التي تقدّم بها فيما بعد، وخلال ستة الأشهر التي قرأ فيها كتبي، وعندما جعلني أكرر ما أتذكره، لم يبق لدي ما أتفوق فيه عليه. مع أنه كان يتصرف كأن لديه معلومات أعمق، وأكثر واقعية من المعلومات التي تدرس في المدارس وتتجاوز كتبه غير المهم أكثرها، وهو نفسه يقر بهذا. بعد ستة أشهر من بدئنا لم نكن ثنائياً يتعلم ويتقدم، بل هو يفكر وأنا أذكّره فقط ببعض التفاصيل ليفكر فيها، أو أساعده ليعيد النظر فيما يعرفه.

كان يجد تلك الأفكار ـ التي نسيتُ معظمها ـ ليلاً بعد مرور زمن طويل على تناولنا طعاماً اخترعناه بأنفسنا، وبعد أن تطفأ مصابيح الحي كلها، ويلتف محيطنا بالصمت. كان يذهب صباحاً ليدرّس في مدرسة صبئية تابعة لجامع يقع بعد حيين من حينا، ويمر على (المؤقت خانة) التابعة لجامع بعيد هذه المنطقة التي لم أطأها

نهائياً. نقضي الزمن المتبقي في التحضير «لأفكاره» الليلية تلك، أو البحث في متابعتها. في تلك الأثناء كنت مؤمناً بأنني سأعود إلى بلدي في وقت قريب. كنت لا أعارض «أفكاره» التي لم أستمع إليها بتوق لأنني مؤمن بأن هذه المعارضة لن تؤدي سوى إلى تأخير عودتي إلى بلدي.

وهكذا قضينا السنة الأولى بالبحث في موضوع الفلك الذي دفنا فيه أنفسنا، باحثين عن إثباتات وجود ذلك النجم الخيالي أو عدم وجوده. دفع مبلغاً كبيراً لجلب عدسات من بلاد الفلمنك، وصنّع منظاراً، ومع انشغاله به وبآلات الرصد والمساطر نسي الأستاذ قضية النجم الخيالي، وقال بأنه دخل إلى مشكلة أعمق، وهي أنه سيناقش نظام بطليموس، ولكننا لم نتناقش، هو يتكلم وأنا أستمع. كان يحكي عن هراء الكرة الشفافة المعلقة إليها النجوم، وإمكانية وجود شيء آخر يربطها. مثلاً قوة غير مرئية أو قوة جاذبية. ولعل الشمس تدور حول شيء آخر، ولعل النجوم كلها تدور حول مركز آخر لا علم لنا به. فيما بعد قال إنه سيفكر بشكل أشمل من بطليموس، وبحث في مجموعة نجوم جديدة من أجل كوزموغرافيا أوسع، وطرح فرضيات من أجل نظام جديد. القمر يدور حول الأرض، والأرض تدور مع القمر حول الشمس، ولعل المركز هو الزهرة. ولكنه ملّ من هذه أيضاً. بعد ذلك قال إن المشكلة الراهنة ليست طرح هذه الأفكار الجديدة، بل تعريف الذين هنا بالنجوم وحركاتها. وعندما قرر أن يبدأ هذا العمل مع الباشا، علمنا أن صادق باشا نفي إلى أرضروم. قيل إنه شارك في مؤامرة فاشلة.

خلال سنوات انتظارنا عودة الباشا من المنفى قضينا أشهراً في مرتفعات منطقة البوسفور، في هواء يتغلغل حتى نخاع عظامنا، ونحن نتفرج على تدفق مياه البحر، وفي الوديان، حاملين الأوعية لنقيس حرارة وقوة تدفق مياه تلك الوديان إلى البوسفور من أجل الأطروحة التي يعدها حول أسباب التيارات في المضيق.

إزاء رجاء الباشا قضينا ثلاثة أشهر في (غبزة) من أجل عمل خاص له. الخلاف بين الجوامع على تحديد وقت الصلاة هناك قاد الأستاذ إلى فكرة أخرى: أراد صنع ساعة لاتخطئ تشير إلى أوقات الصلاة. في تلك الأثناء علمته الشيء المدعو منضدة. عندما جلبتُ ذلك الشيء ـ الذي حددت قياساته وعمله للنجار ـ إلى البيت، لم يُسرّ منه الأستاذ في البداية، وشبّهه بحجر المصلى، وقال بأنه نحس، لكنه فيما بعد اعتاد على الكراسي والمنضدة، وقال إنه صار يكتب ويفكر على نحو أفضل. عندما كنا عائدين إلى اسطنبول من أجل صب مسنن مشابه لدورة الشمس من أجل ساعة الصلاة، كانت المنضدة قادمة إلينا على ظهر حمار.

في الأشهر الأولى لعملنا ونحن جالسان متقابلان وبيننا المنضدة، كان يعمل على فهم طريقة تحديد أوقات الصلاة والصيام في البلاد الباردة التي يختلف الوقت فيها كثيراً بين الليل والنهار بسبب كروية الأرض. سؤاله الآخر هو: هل ثمة نقطة أخرى غير مكة يستطيع الإنسان فيها التوجه إلى القبلة من أي جانب كان؟ ولكنني في ذلك الوقت كنت أعتقد أنه يشعر «بتفوقي وتميزي»، ولعل سبب غضبه هو اعتقادي هذا. بقدر ما كان يتحدث مطولاً عن العلم فهو يتحدث أيضاً عن الذكاء. وعندما سيعود الباشا إلى اسطنبول سيطور تصميماته أكثر، وسيؤثر فيه بنموذج لمفهوم وقواعد كوزموغرافيا جديدة، وساعة جديدة. وهذا سيلقي بذور بعثٍ جديد، وبهذا البذار سينقل التوق الذي في داخله إلى الجميع: كلانا ينتظر.

3

في تلك الفترة كان يفكر بكيفية تطوير آلية مسننات كبرى تحقق إمكانية العيار كل شهر على الأقل وليس كل أسبوع. وبعد تطوير مسننات كثيرة في عقله صنع ساعة تُغَيَّر مرة واحدة في السنة، وكان يعتقد أن المسألة كلها هي إيجاد القوة التي تحرّك المسننات المتزايدة، والمتثاقلة كلما طالت فترة ربطها. وفي تلك الأثناء علم من أصدقائه في (المؤقت خانة) بعودة الباشا من أرضروم.

صباح اليوم التالي ذهب لتهنئة الباشا. اهتم الباشا بالأستاذ وسط زحمة الزوار، وتأجج فضوله حول اكتشافاته، وسأله عني. في تلك الليلة فككنا الساعة وركبناها مجدداً، وأضفنا إلى نموذج الكون بعض الأشياء، وصبغنا الكواكب بواسطة الفراشي التي كانت بأيدينا. وقرأ الأستاذ عليّ بعض المقاطع من النص الذي كتبه بلغة شعرية منمقة للتأثير على مستمعيه، ثم حفظه غيباً. وقبيل شروق الشمس قرأ بالمقلوب النص الذي كتبه حول منطق دوران الكواكب كي يتغلب على انفعاله. بعد ذلك حمّل آلاتنا على عربة طلبها، وذهب إلى منزل الباشا. نظرت مندهشاً إلى الساعة التي ملأت البيت لأشهر لأنها بدت صغيرة إلى حد أنها مجرد حمل عربة حصان واحد. عاد مساء في وقت متأخر.

بعد أن أنزل أدواته إلى الحديقة، وبعد أن دقق الباشا ببرودة رجل عجوز جَلف لايحب المزاح في تلك الأشياء الغريبة، قرأ الأستاذ

النص الذي يحفظه. تذكرني الباشا أيضاً، وقال العبارة التي سيقولها السلطان بعد سنوات وهي: «هل هو الذي علمك هذا؟» وهذه هي ردة فعله الأولى. أما الأستاذ فقد قدّم ردة فعل مدهشة أشد. بعد سؤاله: «من؟» فهم أنني المقصود. فقال للباشا إنني مجرد تلميذ مخبول. كان غير مهتم بي عندما حكى لي هذا، إذ راح عقله إلى ما يجري في قصر الباشا. بعد ذلك قال مصمماً بأن كل هذا من اختراعه، ولكن الباشا لم يصدقه، ونظر إليه نظرة الباحث عن مذنب. بيد أن الباشا غير راض على كون الأستاذ المحبب إليه كثيراً هو المذنب.

وهكذا تحدثا عني في حين كان عليهما أن يتحدثا عن النجوم. وأدركتُ أن الأستاذ لم يُسرّ من الحديث في هذا الموضوع. وهكذا خيّم صمت، ثم تحول انتباه الباشا إلى الضيوف الآخرين من حوله. على مائدة العشاء حاول الأستاذ مرة أخرى الحديث عن النجوم والاختراعات، لكن الباشا قال بأنه حاول تذكر وجهي، ولكن لم يخطر بباله إلا وجه الأستاذ. قال: ثمة آخرون على العشاء، وبدؤوا حديثاً طويلاً حول أن الناس يُخلقون أزواجاً، وتذكروا أمثلة مبالغاً بها عن التوائم الذين تخلط حتى أمهاتهم بينهم، وعن المتشابهين الذين يخافون عند رؤية بعضهم البعض، والذين لم يتفرقوا بعد لقائهم، وعن اللصوص الذي أخذوا مكان الأبرياء. وعندما غادر الضيوف القصر، طلب الباشا من الأستاذ البقاء.

حين بدأ الأستاذ بالشرح مرة أخرى سُرّ الباشا كثيراً في البداية، لكن مزاجه تعكر بالمعلومات المتبادلة غير المفهومة تماماً. إلا أنه بعد أن استمع للنص الذي قرأه الأستاذ غيباً للمرة الثالثة، وبعد أن شاهد، محملقاً، دوران الأرض والكواكب في نموذجنا بدا كأنه فهم بعض الأمور، وشعر بفضول معين على الأقل. بدأ يستمع إلى شرح الأستاذ باهتمام أكبر. عندئذ قال له الأستاذ إن الكواكب لاتدور هكذا كما يعتقد الجميع، بل تدور هكذا. وفي النهاية قال

الباشا: «حسنٌ، فهمت. هذا أيضاً ممكن. لِمَ لاتكون هكذا؟». عندئذ سكت الأستاذ.

لاحظت أن صمتاً طويلاً خيّم عليهما. حدّث الأستاذ نفسه وهو ينظر إلى الخارج عبر النافذة نحو ظلمة الخليج: «لماذا توقف؟ لماذا لم يتمادَ أكثر بالموضوع؟». أنا أيضاً مثله، لا أعرف جواب هذا السؤال. في الحقيقة كنت أشك بإمكانية أن يكون لدى الأستاذ فكرة عن المكان الذين سنذهب إليه فيما بعد، لكنه لم يقل شيئاً. كأن عدم شبه أحد له يؤرقه. فيما بعد اهتم الباشا بالساعة، وجعله يفتحها، وسأله عن وظيفة كل مسنن من مسنناتها، وعن ميكانيكيتها، وثقلها. بعد ذلك أدخل أصبعه داخل الآلة المتكتكة بتوجس، كأنه يدخل أصبعه في جحر أفعى مظلم ومخيف، ثم سحبها. في تلك الأثناء كان الأستاذ يشرح له عن أبراج الساعات، وعن قوة إقامة الصلاة من قبل الجميع في وقت واحد لا خطأ فيه. وفجأة غضب الباشا، وقال له: «تخلّص منه! سممه إن أردت، أو اعتقه. ستر تاح». يبدو أنني نظرت إلى الأستاذ بمزيج من الخوف والأمل في آن معاً. فقال إنه لن يعتقني حتى يدرك حقيقة الأمر.

لم أسأله عن الأمر الذي يريد أن يدرك حقيقته. لعلني ـ وبإحساس غريزي ـ خشيت من معرفتي أن الأستاذ لايعرف هذا. بعد ذلك تحدثنا في أمور أخرى. كان الباشا ـ حسب قوله ـ ينظر إلى الآلة التي أمامه مقطباً وجهه باستصغار، وجلس الأستاذ في المنزل حتى ساعة متأخرة على الرغم من معرفته أنه لم يعد مرغوباً فيه على أمل عودة الباشا إلى الاهتمام به من جديد. بعد ذلك أمر بتحميل الأدوات على عربة. حلمت بشخص لم يستطع النوم في بيت يقع على طريق عودة العربة المظلم والساكن: سمع صخب العجلات، وطقطقة الساعة الضخمة فتأجج لديه الفضول.

بقي الأستاذ واقفاً حتى بزغ ضوء النهار. أردت إشعال شمعة جديدة مكان التي انطفأت، فلم يدعني. ولمعرفتي أنه يريدني أن

أقول شيئاً، قلت: «لابد للباشا أن يفهم الأمر». قلت هذا وهو في الظلمة. ولعله يعرف أيضاً أنني غير مؤمن بهذا، إلا أنه بعد قليل ردّ عليّ: الأمر كله يكمن في حل لغز تلك اللحظة التي توقف فيها الباشا.

عند أول فرصة ذهب إلى الباشا لحلّ ذلك اللغز. في هذه المرة قابله الباشا منتشياً، وحكى له عما يجري، أو أنه تفهم نيته، وبعد أن راضى الأستاذ نصحه بالعمل من أجل السلاح: «سلاح يجعل العالم يضيق بأعدائنا» هكذا قال. لكنه لم يقل كيف سيكون ذلك السلاح. إذا وجّه توقه للعلم في هذا الاتجاه، فإن الباشا سيدعم الأستاذ. طبعاً لم يأت على ذلك المعاش الذي ننتظره. فقد أعطى للأستاذ كيساً مملوءاً بالقروش الفضية فقط. فتحناه في البيت، وعددناها، كانت سبعة عشر قرشاً. إنه رقم غريب! بعد أن أعطى للأستاذ ذلك الكيس قال له: إنه سيخاتل السلطان لكي يستمع إليه. وشرح له أن الولد فضولي «لأمور كهذه». لم أتعلق بهذا الكلام، كما لم يتعلق به الأستاذ المتفائل بسهولة. ولكن بعد أسبوع نقلوا خبراً. قالوا: إن الباشا سيأخذنا ـ وأنا أيضاً ـ إلى السلطان بعد الإفطار.

استعداداً للأمر غيّر الأستاذ النص الذي قرأه للباشا بحيث يفهمه ولد في التاسعة من عمره، وحفظه. لم يكن عقله عند السلطان بل عند الباشا وعند سبب توقفه متردداً. وفي يوم ما سيكتشف سر هذا الأمر. كيف يمكن أن يكون السلاح الذي طلب صنعه الباشا؟ لم يبق لدي كثير مما يمكن قوله، فكان يعمل وحده. بينما كان الأستاذ يغلق باب غرفته على نفسه حتى منتصف الليل، كنت أجلسُ مثل ولد مخبول أمام نافذة غرفتي دون عمل شيء سارحاً في خيالاتي، غير مفكر حتى في زمن عودتي إلى بلدي: كأن من يعمل وراء المنضدة ليس الأستاذ بل أنا، وأستطيع الذهاب حيث أريد، ومتى أريد.

في مساء أحد الأيام حمّلنا أدواتنا على عربة، وذهبنا إلى القصر. صرت أحب أزقة اسطنبول، وكنت أتخيّل أنني رجل خفي يعبرها وأنا أمرّ بين أشجار الصنوبر والكستناء والأرجوان

الضخمة في الحدائق كظل. ركّبنا الأدوات بمساعدة آخرين حيث أشاروا لنا في البهو الثاني.

كان السلطان ولداً قصيراً نسبة إلى عمره، محبباً ذا خدين أحمرين. تلمّس الأدوات كأنها ألعابه الخاصة. لم أعد الآن أستطيع معرفة إن كنت قد أردت عندئذ أن أكون صديقاً أو قريناً له، أم أن هذا قد حدث بعد ذلك بمدة طويلة، أو حين قابلته مجدداً بعد خمس عشرة سنة؟ هذا ما لا أستطيع تحديده. ولكنني شعرت فوراً أنه يجب عدم معارضته. عندئذ بدا الأستاذ متأزماً، والجميع حول السلطان ينظرون إليه بفضول. في النهاية استطاع أن يبدأ. أضاف إلى حكايته أشياء جديدة جداً. تحدث عن النجوم كأنها مخلوقات ذكية. شبّهها بمخلوقات عجائبية تعرف الهندسة والرياضيات، وتدور متناغمة حسب معرفتها. كان ينفعل عند رؤيته الولد متأثراً، يرفع رأسه أحياناً إلى السماء ناظراً بإعجاب. هنا عرض عليه الكرات الشفافة التي تدور الكواكب معلقة إليها. هذه هي الزهرة، وهكذا تدور. والشيء الضخم هذا هو القمر، وهو يغيّر مكانه بشكل مختلف. وعندما يدوّر الأستاذ الكواكب يرن الجرس المربوط إلى النموذج، فيخاف السلطان الصغير، ويبتعد خطوة إلى الوراء، بعد ذلك يستجمع جرأته، ويقترب من الأداة الرنانة كما لو أنه يقترب من صندوق سحري.

الآن، وأنا أعمل على استجماع أفكاري لتلفيق ماض لي، أفكر أن ذلك الماضي يشبه الحكايات التي استمعت إليها عندما كنت صغيراً، لها لوحة سعادة مناسبة لأحد الرسامين الذين يرسمون تلك الحكايات، لاينقصها إلا البيوت ذات الأسقف الحمراء الشبيهة بالكاتو، والكرات الزجاجية التي يندف فيها الثلج. بعد ذلك بدأ الولد يسأل، والأستاذ يلحق بالإجابات.

كيف تقف هذه الكواكب معلقة في الهواء هكذا؟ إنها معلقة بالكرات الشفافة! مم صنعت الكرات الشفافة؟ من مادة شفافة تجعلها

هكذا! ألا تصطدم ببعضها البعض؟ لا. إنها طبقات طبقات كما في المجسم! ثمة نجوم كثيرة، لماذا لايوجد نجوم هنا بذلك العدد؟ لأنها بعيدة جداً! إلى أي حد بعيدة؟ بعيدة جداً جداً! هل للنجوم البعيدة الأخرى أجراس ترنّ عندما تدور؟ لا، نحن وضعنا الجرس لندرك أن الكوكب دار دورة كاملة! هل للرعد علاقة بهذا الأمر؟ لا! بم يتعلق؟ بالمطر! هل ستمطر غداً؟ بحسب السماء لن تمطر! ماذا تقول السماء عن أسد السلطان المريض؟ سيشفى، ولكن لابد من الصبر... الخ، الخ.

عندما أدلى الأستاذ برأيه حول الأسد المريض رفع رأسه إلى السماء كما فعل عندما كان يتكلم عن النجوم. وبعد العودة إلى البيت ذكر هذا التفصيل مستهيناً. ليس المهم أن يفصل الولد بين العلم والهراء، بل المهم أن ينتبه إلى بعض الأمور. كان يستخدم الكلمة نفسها مرة أخرى، وفوق هذا يُظهر أنني انتبهت إلى ما يجب الانتباه إليه، ولكنني كنت أفكر فيما لو صرت مسلماً أم لا. وَجَدَ في الكيس الذي قدموه له خمس ليرات ذهبية. قال الأستاذ: لقد شعر السلطان أن ثمة منطقاً معيناً وراء ما يجري للكواكب. آه يا للسلطان! فيما بعد، فيما بعد كثيراً عرفتُهُ! أدهشني ظهور القمر نفسه من نافذة بيتنا، أريد أن أكون طفلاً! لم يستطع الأستاذ السيطرة على نفسه فعاد إلى الموضوع ذاته: مسألة الأسد ليست مهمة، الولد يحب الحيوانات، وهذا كل شيء.

في اليوم التالي أغلق على نفسه الغرفة وبدأ العمل. بعد عدة أيام حمّل الساعة والكواكب مرة أخرى على عربة، وذهب هذه المرة إلى مدرسة الأولاد تحت وطأة نظرات الفضول من خلف شِباك النوافذ. عندما عاد مساءً كان متضايقاً، ولكن ليس إلى حد السكوت. قال: «اعتقدت أن الأولاد سيفهمون مثل السلطان، ولكنني أخطأت». لقد خافوا فقط. بعد أن شرح الأستاذ وسأل، قال أحد الأولاد: في الطرف الآخر للسماء توجد جهنم، وبدأ يبكي.

قضى الأسبوع التالي بتقوية إيمانه بأن السلطان متفهم، وراح يُذكِّرني بالوقت الذي قضيناه في البهو الثاني دقيقة دقيقة، ويوافق على دلائله: نعم، الولد ذكي، منذ الآن يعرف كيف يفكر، نعم، إنه صاحب شخصية تمكنه من التملص من الضغط الذي حوله، نعم، قَبْلَ أن يرى السلطان أحلاماً من أجلنا رأينا نحن أحلاماً من أجله. كان الأستاذ في تلك الفترة أيضاً يعمل على الساعة، وأعتقد أنه يفكر بشيء ما من أجل السلاح، لأن هذا ما قاله للباشا عندما طلبه، ولكنني أشعر أنه قطع أمله من الباشا. قال عنه: «صار مثل الآخرين، يريد معرفة ما لايعرف!» بعد أسبوع طلبه السلطان فذهب.

قابل السلطان الأستاذ فرحاً، وقال: «شفي أسدي، وصار ما قلت». بعد ذلك خرج مع الجمع الذي حوله إلى الباحة، وأراه الأسماك التي في البركة، وسأله عن حالتها. قال لي الأستاذ وهو يحكي لي عن هذا الأمر: «كانت حمراء، ولايخطر ببالي شيء آخر أقوله» في تلك اللحظة شعر أن في حركة الأسماك نظاماً معيناً، لكأنها تتكلم فيما بينها لتوصل هذا النظام إلى الكمال. فقال الأستاذ بأنه وجد الأسماك ذكية. عندما ضحك قزم يرافق مشرفي الحرم ليذكّر السلطان بنصائح أمه، أنّبه السلطان. وعندما ركبوا العربة لم يدعِ القزم ذا الشعر الأحمر يركب العربة كعقوبة.

دخلوا بالعربات إلى ساحة الخيل وإلى صالة الأسود. الأسود والفهود والنمور مربوطة إلى أعمدة كنيسة قديمة، فعرضها السلطان على الأستاذ واحداً واحداً. وقفوا أمام الأسد الذي قال الأستاذ إنه سيشفى، وتحدث إليه الولد، وعرّف الأستاذ بالأسد. بعد ذلك ذهبوا نحو لبوة مضّطجِعة في زاوية. كانت نظيفة وليست مثل الحيوانات الأخرى، وهي حامل. سأل السلطان بعينين براقتين: «كم شبلاً ستلد هذه اللبوة، وكم سيكون عدد الإناث، وكم عدد الذكور؟».

أقدم الأستاذ المتوترة أعصابه على ما وصفه بأنه خطأ، وقال للسلطان بأنه يفهم في الفلك، إلا أنه ليس منجماً. ولكن الولد قال له:

«أنت تعرف أكثر من كبير المنجمين حسين أفندي». لم يجب الأستاذ خشية أن يوصل أحد الموجودين في الجوار الجواب لحسين أفندي. فردّ السلطان الضجر من هذا: هل الأستاذ لايعرف شيئاً، ويراقب النجوم دون جدوى؟

إزاء هذا اضطر لطرح ما كان يخطط لطرحه بعد وقت طويل، فقد قال بأنه تعلم أشياء كثيرة من النجوم، وتوصل إلى نتائج مفيدة جداً. فسّر جيداً صمت السلطان المحملق وهو يستمع، فقال بأنه من الضروري إنشاء (رصد خانة) لمراقبة النجوم، مثل تلك التي أمر جده مراد الثالث جد أحمد الأول بها لتقي الدين أفندي قبل تسعين سنة، وتهدمت نتيجة الإهمال. ويجب أن تكون متطورة عن تلك أولاً، وأن تكون بيت علم لاتُراقب فيه النجوم فقط، بل العالم كله حيوانات وأنهاراً وبحاراً وغيماً وجبالاً وزهوراً وأشجاراً، وتُسجل الملاحظات، وليأتِ علماء الطب والحيوان لمناقشة نتائج الملاحظات لتطويرها وتطوير عقولنا.

استمع السلطان لهذه الفكرة ـ التي سمعتها من الأستاذ أول مرة ـ كأنه يستمع لحكاية جميلة. في طريق العودة بالعربات سأل مرة أخرى: «كيف ستلد اللبوة حسب رأيك؟» هذه المرة أجاب الأستاذ لأنه فكر بالجواب مسبقاً: «ستكون الأشبال متوازنة فيما بينها». وقال لي في البيت: ليس ثمة خطورة من هذا الكلام. وأردف: «سأضع ذلك الولد المخبول في قبضتي، وأنا أشطر من كبير المنجمين حسين أفندي». أدهشني استخدامه هذه الكلمة وهو يتحدث عن السلطان، حتى أنني حزنت. كنت عندئذ أقوم بأعمال البيت ضجراً.

فيما بعد بدأ يستخدم تلك الكلمة مثل مفتاح سحري يفتح الأقفال كلها. لأنهم مخبولون لاينظرون إلى النجوم التي تدور فوق رؤوسهم، ولايفكرون. لأنهم مخبولون يسألون عن فائدة ما سيتعلمونه. لأنهم مخبولون لايهتمون بالتفاصيل بل بالملخصات. لأنهم مخبولون يتشابهون... الخ. على الرغم من استمتاعي كثيراً

بتصريحات كهذه في بلدي لم أقل شيئاً للأستاذ. في تلك الأثناء لم يكن لهذا الأمر علاقة بي، بل بمخبوليه. خبلي من نوع آخر. حكيت له دون تفكير عن حلم رأيته فيه يأخذ مكاني، ويذهب إلى بلدي، ويتزوج من خطيبتي، ولاينتبه أحد إلى أنه ليس أنا من في العرس. بينما أنا في الفرح أتفرج من إحدى الزوايا مرتدياً ألبسة تركية، رأيت أمي وخطيبتي السعيدة. لم تعرفاني على الرغم من دموعي التي أيقظتني من نومي، وذهبتا مبتعدتين عني.

ذهبت مرتين إلى منزل الباشا في تلك الفترة. غالباً ما كان الباشا غاضباً من إقامة الأستاذ علاقة قريبة من السلطان خارج إشرافه. استنطقه. بعد وقت طويل ـ بعد أن نفي الباشا من اسطنبول ـ قال لي إنه سأل وتحرّى عني، وكنتُ سأقضي أيامي خائفاً من تسميمي. وعرفت من الأستاذ أيضاً أن الباشا يهتم بي كثيراً، وأمتعني حديثه مع الأستاذ عن التشابه فيما بيننا، وقلق الباشا من هذا التشابه. في تلك الفترة كان التشابه أمراً لايريد الأستاذ معرفته في أي وقت، ووجوده عبارة عن سر يمنحه جرأة غريبة. أحياناً كنت أفكر أنني بعيد جداً عن الخطر طالما بقي الأستاذ حياً بسبب هذا التشابه. ولعلني لهذا السبب عارضت قول الأستاذ عن الباشا بأنه من هؤلاء المخبولين، وغضب لهذا الأمر. ولإدراك عدم تخليه عني وخجله مني أيضاً، كان يدفعني إلى وقاحة لم أعتدها. وبعد تردد يسأل عن الباشا، وينقل ما قاله الباشا عنا، وسبب هذا على الأغلب هو غضبي الشديد غير المكشوف من الأستاذ. عندئذ كان يقول معانداً سيزحلق الباشا قريباً، وقريباً سيُقْدِمُ الإنكشاريون على عمل ما، وهو يشعر بأن أموراً ما تحبك داخل القصر. لهذا السبب ـ بحسب قول الباشا ـ إذا كان سيعمل في السلاح، فعليه ألا يصنعه من أجل وزير مؤقت، بل يجب أن يصنعه لتقديمه للسلطان.

في وقت ما اعتقدت أنه لايعمل إلا في ذلك السلاح الغامض. وأنه يعمل ولكنه لايحقق تقدماً. لأنني كنت واثقاً من أنه لو كان قد حقق تقدماً فسيبوح لي به حتى لو كان من قبيل استصغاره لي،

ومحاولةً منه لاستقراء أفكاري حوله. مساء أحد الأيام ذهبنا إلى ذلك البيت الكائن في (أقسراي) كما نفعل عادة كل أسبوعين أو ثلاثة، وبعد الاستماع إلى الموسيقى ضاجع النساء. في طريق عودتنا إلى البيت قال لي الأستاذ بأنه سيعمل حتى الصباح. بعد ذلك سأل عن النساء. والحديث حول النساء هو موضوع لانبحث فيه أبداً. فيما بعد قال فجأة: «أنا أفكر» ولكنه أغلق على نفسه الغرفة فور دخولنا إلى البيت دون أن يحكي عما يفكر فيه. أما أنا فغرقت في كتبي التي سئمت من تقليب صفحاتها، وفكرت بهذا: عندما يكون هناك تصميم أو فكرة لايستطيع تطويرها، يجلس خلف الطاولة التي لم يعتد عليها تماماً في الغرفة المغلقة عليه، وينظر إلى الأوراق الفارغة، ثم يبقى ساعاتٍ دون عمل غاضباً وخجولاً.

بعد وقت طويل من منتصف الليل خرج من غرفته، وناداني للجلوس إلى الطاولة خجلاً متواضعاً كتلميذ تعثر عند مشكلة، ويريد مساعدة. قال لي دون تردد: «ساعدني. لنفكر معاً. لا أستطيع التقدم وحدي». اعتقدت للحظة أن للأمر علاقة بالنساء فسكتُّ. عندما رآني أنظر ساهماً قال جدياً: «أنا أفكر بالمخبولين. لماذا هؤلاء مخبولون إلى هذا الحد؟» بعد ذلك أضاف كأنه يعرف جوابي: «حسنٌ، إنهم ليسوا مخبولين كثيراً، ولكن ثمة نقصاً في عقولهم». لم أسأله: «من هم؟» قال: «أليس ثمة مكان في عقولهم يحافظون فيه على المعلومات؟» تلفَّت حوله كأنه يبحث عن كلمة: «يجب أن يكون في عقولهم صندوق أو صناديق مثل عينات هذه الخزانة، أو زاوية يستطيعون ترتيب الأشياء المبعثرة فيها، ولكنهم لايملكون شيئاً كهذا. هل تفهمني؟» أردت إقناع نفسي بأنني فهمت أموراً ما، ولكنني لم أنجح في هذا. سكتنا طويلاً ونحن نجلس متقابلين. في النهاية قال: «من يستطيع أصلاً معرفة أن الإنسان هكذا أو هكذا...» بعد ذلك قال: «آه لو أنك طبيب حقيقي، وعلمتني الحكمة لمعرفة أجسادنا، وما في داخل أجسادنا ورؤوسنا» كأنه خجل قليلاً. وشرح لي هذا بموقف سليم، أعتقد أنه تقصّده لكي لايخيفني: لن

يستسلم، وسيذهب إلى النهاية لأنه يتوقف لمعرفة ماذا سيحدث في النهاية من جهة، ومن جهة أخرى ليس لديه عمل آخر يقوم به. لم أفهمه ولكنني استمتعت لاعتقادي أنه تعلم هذه الأشياء مني.

فيما بعد كرر هذه العبارة كثيراً وكأن كلينا لايعرف ما تعنيه. ولكنه كان يعبّر عن تصميمه هذا غالباً بأداء تلميذ حالم. وفي كل مرة يقول إنه سيذهب حتى النهاية. أعتقد أنني أشهد على هزيمة عاشق يائس حزين وغاضب يسأل باستمرار عن أسباب ما وقع له. في تلك الفترة كان يكرر هذه العبارة كثيراً، وقالها عندما علم أن الإنكشاريين يحضرون لتمرد. رواها بعد أن صرح لي بأن التلاميذ في المدرسة يتوقون للمعرفة حول الملائكة أكثر من النجوم. وقالها بعد أن اشترى مخطوطاً بمبلغ كبير ورماه جانباً بغضب قبل قراءة نصفه. وبعد عودته من (المؤقت خانة) التي صار يذهب إليها بحكم العادة فقط، وحديثه مع أصدقائه فيها. وبعد أن برد في الحمام الذي لم يدفأ جيداً. وبعد أن تمدد على فراشه الذي نثر عليه وعلى لحافه وغطائه كتبه المحببة. وقالها لي بعد أن استمع إلى الأحاديث الفارغة التي تحدث بها المتوضئون في باحة الجامع، وبعد علمه أن الأسطول هُزم أمام البندقيين. كما كررها بعد أن استمع صابراً لأبناء الحي الذين يزورونه قائلين بأنه يتقدم بالسن، وعليه أن يتزوج: سيذهب إلى النهاية.

الآن أفكر: أيُّ قارئ يتابع ما كتبته حتى النهاية صابراً، ويعرف ما يجري، أو يتخيله لايوافق على عبارة الأستاذ تلك؟

4

في يوم من أيام أواخر الصيف سمعنا أن جثة كبير المنجمين حسين أفندي وُجدت على شاطئ (استنية). في النهاية تم الحصول على فتوى بقتل الباشا، وهو لم يهدأ حيث يختبئ، وبدأ يرسل رسائل إلى هذا وذاك على أنه ثمة دلائل تشير إلى أن صادق باشا سيموت لهذا عُرف مكانه. وعندما حاول العبور إلى الأناضول لحق الجلادون بالقارب وأغرقوه. عندما علم الأستاذ بمصادرة أموال كبير المنجمين وأملاكه تحرك من أجل الحصول على أوراقه وكتبه ودفاتره، ودفع كل ما ادخره رشاوى من أجل هذا. في إحدى الليالي، بعد أن جلب صندوقاً فيه آلاف الصفحات وقرأها خلال أسبوع، قال غاضباً إنه يستطيع كتابة أفضل منها.

ساعدته في تنفيذ ما قاله. وشرحت له عن الخيول الجميلة والحمير والأرانب، وأنواع الحرباوات التي رأيناها في سهل حدائق بيتنا العريض في نابولي من أجل أطروحتين قرر تقديمهما للسلطان، هما: «حياة الحيوان» و«عجائب المخلوقات». وإزاء قول الأستاذ بأن قوة تخيلي ضعيفة جداً، تذكرت الضفادع الإفرنجية ذات الشنب في بركتنا المغطاة بالنيلوفر، والببغاوات الزرقاء المتحدثة بلهجة سجيليا، والسناجب التي تنظف كل واحدة منها فراء الأخرى قبل التزاوج، فشرحتها. ثمة قِسمٌ عملنا عليه مطولاً بانتباه هو «حياة النمل» بسبب اهتمام السلطان به، وعدم اطلاعه الواسع عليه لأن البهو الثاني نظيف إلى حد خيالي.

حين كتب الأستاذ عن حياة النمل المنتظمة والمنطقية كان يحلم بأنه سيعلّم السلطان الولد. وعندما وجد أن النمل الأسود معروف شرح نظام النمل الأحمر الأمريكي. وهذا ألهمه فكرة تأليف كتاب عن الذين يعيشون في بلد الأفاعي المدعو أمريكا، أولئك السكان الأصليون الكسالى الذين لايغيّرون حياتهم أبداً، وسيكون كتاباً مؤلماً من جهة ومسلياً من جهة أخرى. وقال إنه سيكتب كتاباً، حكى لي عن تفاصيله، وهي: ثمة ولدٌ ملك متعلق بالصيد والحيوانات، ولا يهتم بالعلم، وفي النهاية سيروي كيف خوزقه الكفار الإسبان. وأعتقد أنه لايجرؤ على كتابة هذا الكتاب أبداً. لم ترضنا الرسوم التي رسمها معلمو المنمنمات لجعل الثور المجنح، والتيس ذي القوائم الستة، والأفاعي ذات الرؤوس المزدوجة مقنعة. قال الأستاذ: «هكذا كان الواقع في القديم، أما الآن فكل شيء ذو ثلاثة أبعاد وظل حقيقي، انظر، حتى النملة العادية تجرّ وراءها ظلها مثل توأمها صابرة متحملة».

ولأن السلطان لم يرسل للسؤال عنه، قرر تقديم الأطروحتين له عن طريق الباشا، ولكنه فيما بعد ندم كثيراً على هذا. قال الباشا إن علم النجوم عبارة عن سفسطة، وإن كبير المنجمين حسين أفندي تدخل في أمور أكبر منه، وحاك مؤامرات سياسية، وثمة اعتقاد بأن الأستاذ تطلع للحصول على مكانه الشاغر، وهو مؤمن بالشيء المدعو علماً، والعلم ليس ذلك الذي يتعلق بالنجوم بل بالأسلحة. وإن مهنة كبير المنجمين مهنة منحوسة، والذين جاؤوا إلى هذا الموقع كلهم في النهاية إما ماتوا، أو الأسوأ من هذا لم يبق لهم موطئ قدم في الدنيا. ويُفهم هذا من اختفائهم. ولهذا السبب لايريد أن يحصل الأستاذ على هذه الوظيفة لأنه يحبه ويثق بعلمه. وإن صدقي أفندي المخبول والبريء ـ إلى حد إمكانيته القيام بهذا العمل ـ سيكون كبير المنجمين الجديد. وسمع أن الأستاذ قد حصل على كتب كبير المنجمين السابق، وطلب منه عدم الاهتمام بهذا الموضوع. والأستاذ أيضاً قال له إنه لم يهتم بغير العلم، ثم قدم له

الأطروحتين لإيصالهما إلى السلطان. مساء قال في البيت إنه لن يهتم بغير العلم، وسيعمل كل ما يلزم للانكباب على العلم، وأول عمل قام به هو توجيه اللعنات للباشا.

أمضينا الشهر التالي تواقين لمعرفة تأثير حيوانات قوة خيالنا على الولد. وكان الأستاذ يفكر بسبب عدم دعوته إلى القصر حتى ذلك الوقت. في النهاية طلبوه إلى الصيد. ذهبنا إلى قصر (ميراهور) على ضفة وادي (كاغت خانة)، هو بجانب السلطان وأنا أتفرج من بعيد. كان المكان مزدحماً. حضّر آمر الحامية كل شيء: أطلق الأرانب والثعالب ومن خلفها الكلاب السلوقية، ونحن نتفرج، أحد الأرانب انفصل عن جماعته، وعندما ألقى بنفسه إلى الماء تبعه الجميع، وبعد أن عبر إلى الشاطئ الثاني سباحة أراد رجال الحامية إطلاق الكلاب نحوه، فسمعنا ـ نحن البعيدين ـ السلطان يصيح: «ليُحرر الأرنب» مانعاً هذا. ولكن كلباً غريباً كان على الشاطئ الآخر، فألقى الأرنب بنفسه مرة أخرى في الماء، إلا أن الكلب لحق به وأمسكه، فهرع رجال الحامية، وخلّصوا الأرنب من فم الكلب، وجلبوه، ووضعوه في حضرة السلطان. أمر الولد بمعاينة الأرنب فوراً، وفرح عندما وجد أنه ليس ثمة جرح خطير فيه، فأمر بأخذه إلى رأس الجبل، وإطلاقه هناك. بعد ذلك اجتمع الجميع بمن فيهم الأستاذ والقزم الأحمر الشعر حول السلطان.

مساء حكى لي الأستاذ: سأل السلطان عن تفسير هذه الحادثة، وعندما دار الدور على الجميع، وجاء دوره قال: سيظهر العدو للسلطان من حيث لايتوقع، ولكنه سيتجاوز الخطورة دون بلاء أو إصابة. وإذا كان الآخرون قد حاولوا الإساءة لهذا التفسير لأنه يذكر العدو وخطر الموت، وحتى يساوي بين السلطان والأرنب، إلا أن السلطان أسكت الجميع بمن فيهم صدقي أفندي كبير المنجمين الجديد، وقال للأستاذ بأنه سيضع كلماته قرطاً في أذنه. وبينما كنا نتفرج على النسور فوق البازات المتخبطة دفاعاً عن نفسها بحلاوة الروح، ونهاية ثعلب قطعته الكلاب السلوقية إلى قطع صغيرة، قال

السلطان إن اللبوة وضعت شبلين ذكراً وأنثى، وهكذا فهما متوازنان، وأنه أحب كتب الحيوانات. سأل عن الثيران ذات الأجنحة الزرقاء والقطط الزهرية في أدغال شاطئ النيل. وكان الأستاذ يعيش حالة عجيبة هي مزيج من شعور نشوة النصر والخوف.

بعد هذا بوقت طويل تلقينا خبر حدوث أمور ما في القصر: اتفقت السلطانة (كوسم) مع أغوات الإنكشارية، وحبكت مؤامرة لقتل السلطان وأمه، وإجلاس الأمير سليمان مكانه ولكنها لم تنجح، وخنقوا السلطانة (كوسم) حتى نزف الدم من أنفها وفمها وماتت. علم الأستاذ بما حدث من أصدقائه المخبولين المترددين على (المؤقت خانة) وهو يذهب إلى المدرسة، وغير هذا لايذهب إلى أي مكان.

في الخريف فكر مرة بتناول قواعد الكوزموغرافيا مجدداً، ولكن اليأس سيطر عليه: ثمة ضرورة لرصد خانة، فوق هذا فإن المخبولين لايدفعون شيئاً للنجوم، كما أن النجوم لاتقدم شيئاً للمخبولين. جاء الشتاء، وبدأت الأيام الغائمة، وفي أحد تلك الأيام علمنا أن الباشا قد عزل. كانوا سيخنقونه، ولكن السلطانة الوالدة لم ترضَ بهذا، فصودرت أمواله ونفي إلى أرزنجان، ولم نتلقَ عنه أي خبر سوى خبر وفاته. قال الأستاذ: إنه لم يعد يخاف من أحد، كما أنه غير مدان بمنة لأحد، ولا أعرف قراره حول حجم ما تعلّمه مني. لم يعد يخجل من الولد وأمه كأنه يقول: «إما الصدر أو القبر» ولكنه يجلس مثل حمل وديع في بيتنا بين الكتب، ويتحدث عن النمل الأحمر الأمريكي، ويبني خيالات (نمل نامة).

قضينا ذلك الشتاء في البيت كالشتاءات السابقة واللاحقة الكثيرة، ولم يحدث شيء. في الليالي الباردة كنا نجلس في الطابق السفلي للبيت الذي تتدفق فيه الرياح من بابه ومن مدخنته، ونتحدث حتى الصباح. لم يعد يستهين بي، أو أنه يخجل من مظاهر الاستهانة. كنت أربط قربه مني بعدم اتصال أحد من القصر أو

الحاشية به. وأحياناً أفكر بفضول أنه يرى التشابه بيننا كما أراه أنا، أو صار يرى نفسه عندما ينظر إليّ: ما الذي يفكر فيه؟ حضّرنا أطروحة طويلة حول الحيوانات، ولكنها بقيت على المنضدة لأن الباشا منفي، ويقول الأستاذ إنه لم يحتمل رائحة فم أحد من الذين يترددون إلى القصر. أحياناً أقلّب صفحاتها لطرد الملل من قلة العمل، وأتفرج على الجراد البنفسجي، والسمك الطيار الذي رسمته، ويتأجج فضولي لمعرفة شعور السلطان عندما سيقرأ هذه الأسطر.

لم يطلبوا الأستاذ حتى أيام الربيع. عندما رآه الولد فرح كثيراً. وحسب قول الأستاذ فإن السلطان يفكر في كل حركة وكل كلمة قالها منذ مدة طويلة، ولكنه لم يطلبه نتيجة شدة حصار المخبولين من حوله عليه. بدأ السلطان الحديث فوراً عن مؤامرة جدته، وقال إن الأستاذ قد شعر بها مسبقاً، ورأى هذه الخطورة، ولكن الأستاذ من جهة أخرى رأى أن السلطان سيخرج سليماً معافى من هذه المؤامرة. وعلم أن الولد لم يخف في تلك الليلة من الذين يطلبون روحه في القصر، فقد خطر بباله الكلب الخائن وعدم تأثير أنيابه على الأرنب. وبعد عبارات المديح التي قالها السلطان أمر بإعطاء أرض مناسبة تجلب دخلاً للأستاذ. وقبل أن يتعلق الموضوع بالنبوءة اضطر الأستاذ للخروج، وقالوا له إن عليه أن ينتظر حتى نهاية الصيف من أجل وثيقة الإقطاعية.

أثناء الانتظار صمم الأستاذ على تأسيس رصد خانة صغيرة في الحديقة اعتماداً على دخل الإقطاعية، وحَسَبَ أبعاد الجب الذي سيحفر، ومالية الأدوات التي ستركّب، ولكنه هذه المرة ملّ بسرعة. في تلك الفترة وجد عند ورّاق نسخة مخطوطة بخط سيء للكتاب الذي يجمع نتائج الرصد الذي رصده تقي الدين. صرف شهرين من وقته للتأكد من صحة الرصد، ولكنه ترك العمل غاضباً لأنه لم يستطع تحديد الخطأ عما إذا كان ناتجاً عن أدواته الرخيصة، أم عن تقي الدين، أم عن عدم الدقة في كتابة الكتاب السيئة. الشيء الذي وتّر أعصابه أكثر هو إدخال أحد أصحاب الكتاب السابقين الأبيات

الموزونة والمقفاة بين جداول المثلثات المحسوبة بالحساب الستيني. استخدم صاحب الكتاب حسابات الأبجدية وأساليب أخرى مكوناً، وبتواضع، رؤى حول مستقبل العالم: في النهاية سيولد له ولد بعد أربع بنات، وسيظهر وباء يفصل بين الكافر والمؤمن، وسيموت جاره بهاء الدين أفندي. وإذا كان الأستاذ قد شعر بدايةً بالمرح وهو يقرأ هذه الكهانات، إلا أنه فيما بعد وقع تحت سيطرة شعور الحزن. صار يتحدث عن ظلامية غريبة ومخيفة من داخل رؤوسنا. تكلم وكأن هذه صناديق من تلك التي نفتحها وننظر فيها ثم نغلقها، أو تلك الخزائن التي في الغرفة.

لم تخصص لنا الإقطاعية التي وعدنا بها السلطان في نهاية الصيف، ولا في بداية الشتاء. في الربيع التالي قالوا للأستاذ إن ثمة وثيقة جديدة تحرر، وعليه أن ينتظر. في هذه الأثناء كان يدعى أحياناً إلى القصر، وكان يجيب عن تفسيرات أمور مثل كسر مرآة، أو سقوط صاعقة خضراء قرب سواحل جزيرة (ياصّا)، أو إبريق مليء بشراب الكرز الحامض بلون الدم، كما يُسأل عن الحيوانات المرسومة في أطروحتنا المكتوبة مؤخراً، ويجيب على أسئلة السلطان. عندما عاد إلى البيت قال إن الولد وصل إلى سن البلوغ، وهذه الفترة هي الأكثر تأثيراً في الحياة، وهو يدعي أنه سيضع السلطان في قبضته.

بدأ بكتابة كتاب جديد لهذا الهدف. استمع مني إلى حكايتيّ (نهاية أزتك) و(مذكرات كورتز). ولأنه لايهتم بالعلم فقد كان في عقله مسبقاً حكاية ملك صغير أقعد على الخازوق. آنئذ كان يتحدث عن عديمي الشرف الذين أخضعوا الناس الطيبين الغافلين بمدافعهم وآلاتهم وحكاياتهم وأسلحتهم، وأسسوا نظامهم، ولكنه أخفى عني مدة طويلة الأمور التي انكبّ على كتابتها. أذكر أنه كان ينتظر اهتمامي، ولكن توقي الشديد فجأة لموطني في تلك الأيام دفعني إلى الكآبة، وزاد من حقدي عليه. ضغطت على فضولي، ونجحت في التظاهر بأنني غير مبالٍ بالنتائج التي وصل إليها ذكاؤه المبدع

انطلاقاً من الكتب السيئة ذات الجلود المهترئة، التي قرأها لأنها رخيصة، ومما حكيته له أنا. وهكذا تفرجت مستمتعاً على فقدانه ثقته بنفسه تدريجياً يوماً بعد يوم، وبعد ذلك على ما كتبه في تلك الفترة.

كان يصعد إلى الغرفة الصغيرة العلوية التي جعلها غرفة عمله الخاصة، ويجلس إلى منضدتنا التي صنعتها، ويفكر. أستشعر ـ بل أعرف ـ أنه لايكتب. أعرف أنه لا يجرؤ على كتابة ما يفكر فيه قبل أن يأخذ رأيي. ما كان يمنعه من الثقة بنفسه لم يكن بالضبط قصور أفكاري البسيطة التي يتظاهر أنه مستهين بها. هو أصلاً يريد معرفة أفكار أمثالي والذين علموني تلك المعلومات كلها، ووضعوا في رأسي صناديق المعلومات وخزائنها. بماذا يفكرون في وضع كهذا يا ترى؟ هذا هو ما يتحرق للسؤال عنه ولا يسأله! كم انتظرته لكي يطأ على غروره ويسألني هذا السؤال بجرأة؟ ولكنه لم يسأل. بعد مدة ترك ذلك الكتاب الذي لا أعرف إن كان قد أنهاه أم لا، وعاد إلى نغمة «المخبولين» تلك. لماذا يجب أن يمر العلم ـ الذي يجب أن يعمل به أساساً الفهماء ـ على مخبولين كأولئك، وأن يمر عبر التفكير بسبب كون عقولهم على هذا النحو! كنت أعتقد أن الأمور تتكرر بسبب الناس، وبسبب عدم قدوم إشارات الموقع الرفيع المتوقعة من القصر. يمر الزمن فارغاً، ولم تفد فترة بلوغ السلطان في شيء.

في النهاية حصل الأستاذ على الإقطاعية في الصيف الذي سبق تسلم محمد باشا كوبرولو منصب الوزير الأول وفي المكان الذي اختاره: طاحونتان وضيعتان جوار قصبة غبزة تبعدان مسافة ساعة عن القصبة. في موسم الحصاد ذهبنا إلى غبزة، ومصادفة وجدنا البيت القديم فارغاً فاستأجرناه، ولكن الأستاذ نسي الأشهر التي قضيناها هنا، والأيام التي نظر فيها إلى المنضدة بكره بعد أن جلبتها من عند النجار. كأن ذكرياته عتقت مع البيت، وتبشعت، وأخذ يُظهر اندفاعاً لايهتم بأي شيء من الماضي. ذهب إلى الضيعتين

عدة مرات للإشراف، ومعرفة قيمة محصولهما في السنوات السابقة، وأعلن أنه وجد أسلوب مسك دفتر يري حسابات دخل المحصول بشكل أبسط، ومفهوم أكثر، متأثراً بأحمد باشا طارهونجو الذي سمع به من قيل وقال أصدقائه في المؤقت خانة.

لكنه لم يكتف بإيجاد هذا الأسلوب الذي لم يؤمن هو نفسه بتفرده وفائدته: لأن جلوسه في الحديقة الخلفية للبيت ناظراً إلى السماء في الليل دون عمل أجَّج حبه للفلك مجدداً. شجعتُه فترة معتقداً أنه سيخطو خطوة إلى الأمام، ولكن يبدو أن نيَّته لم تكن عمل رصد أو طرح فكرة معينة. أعلن على أذكى الشبان والفتيان الذين تعرّف إليهم في غبزة والضيعتين أنه سيعلمهم أرقى العلوم. جلبهم إلى البيت، وأصلح النموذج المجسم الذي أرسلني إلى اسطنبول لجلبه، وزيّنه، ووضعه في الحديقة الخلفية من أجلهم. مساء أحد الأيام ـ وبقوة وأمل لا أعرف من أين استمدهما ـ أعاد عليهم منفعلاً نظرية الفلك التي شرحها قبل سنوات للباشا، وبعد ذلك للسلطان دون أي تعديل. ولكي يقطع أمله للمرة الأخيرة من المجموعة التي غادرت إلى بيوتها في منتصف الليل دون سؤال، ومن الفلك، كفاه أننا وجدنا ذيل خروف مقطوع مازال الدم الفاتر يسيل منه أمام باب بيتنا.

لم يبالغ بهزيمته هذه: طبعاً ليس هؤلاء من سيفهم كيف تدور الأرض والكواكب، وليس من الضروري أن يفهموا. من سيفهم يجب أن يكون على وشك إنهاء مرحلة البلوغ، ولعله بحث عنا في غيابنا. ونحن نفوت الفرصة هنا من أجل بضعة قروش ستصل إلى أيدينا بعد جمع الموسم. وضعنا أمورنا في نصابها، وجعلنا الذي يبدو الأذكى بين أولئك الشبان الأذكياء مشرفاً، وعدنا إلى اسطنبول.

كانت السنوات الثلاث التي تلت هي أسوأ سنوات حياتنا. بدا كل يوم وشهر وفصل تكراراً للملل وتوتر الأعصاب لليوم والشهر والفصل السابق: نرى الأشياء نفسها بألم وتعاسة، وكأننا ننتظر

دون جدوى هزيمة لانستطيع تسميتها. يُستدعى أحياناً إلى القصر، ويُتوقع منه هناك تقديم تفسيرات لاينفذ منها الماء. ويذهب أيضاً بعد ظهر كل خميس إلى المؤقت خانة ليلتقي أصدقاءه في العلم ويتبادل معهم الحديث. يرى التلاميذ صباحاً كما كان في السابق ولو بغير انتظام، ويضربهم، ويقاوم القادمين إلى بيته لتزويجه وإن أبدى شيئاً من تردد. يضطر لسماع تلك الموسيقى التي يقول بأنه لايحبها عندما يذهب لمضاجعة النساء. ويبدو مثل المخنوق أحياناً كرهاً بالمخبولين. يغلق على نفسه الباب، ويتمدد على فراشه بعد أن يفتحه، ويقضي ساعات ناظراً إلى السقف بعد أن يقلّب كتبه الكثيرة ومخطوطاته هذه وتلك.

الأمر الذي زاد من حزنه هو ما سمعه من أصدقائه في المؤقت خانة عن تفاصيل انتصارات محمد باشا كوبرولو. عندما كان يقول لي بأن البحرية هزمت البندقيين، واستردت جزيرة (بو ظجا) و(ليمني)، وأن عصيان أباظا باشا حسان قد أُخمد، وأن هذه آخر النجاحات، وأن هذه الأمور هي آخر حركات المعاق الذي سيغرق في طين الحماقة والفشل، نبدو كأننا ننتظر سوءاً سيغيّر الأيام التي تتعاقب متعبةً لنا. فوق هذا لم يستطع تسلية نفسه لأنه لايمتلك الصبر والأمل اللذين يمكنانه من التوقف طويلاً عند الشيء الذي يدعوه علماً. لم يستطع الصبر أكثر من أسبوع على انفعال فكرة جديدة، وخلال فترة قصيرة سيتذكر مخبوليه، وينسى كل شيء. ألا يكفيهم ما فكر به حتى الآن؟ هل يستحقون أن يُتعب نفسه من أجلهم كل هذا؟ وأن يغضب؟ ولعله تعلم حديثاً تمييز نفسه عنهم، لذلك لم يستطع استجماع إرادته وقوته اللتين تمكنانه من التدقيق في تفاصيل العلم. لقد بدأ يؤمن أنه يختلف عنهم.

أول انفعال أزال الغلالة وُلِدَ من الضيق مباشرة. ولأنه لم يعد يمنح عقله مدة طويلة لأي موضوع، صار مثل الأولاد الأنانيين المخبولين غير القادرين على تسلية أنفسهم، يقضي وقته بالتجول بين غرف البيت، ويصعد إلى الطابق الثاني وينزل، وينظر من النافذة

دون هدف. حين يمر بي وسط تجواله الموتّر للأعصاب، غير المنتهي، والمحدث صريراً في البيت الخشبي، أعرف أنه يبحث عن تسلية عندي، أو يأمل مني بفكرة أو عبارة أمل. ولكنني لم أقل له تلك العبارة المنتظرة للحصول على جواب. لا أقول له العبارة التي يريدها. وإذ يأتيه خبر من القصر يمكن اعتباره جيداً، أو عندما أسمع منه فكرة يمكنه ملاحقتها للوصول إلى نتيجة ملموسة أتجاهلها مبرزاً الجانب الفظ مخمداً انفعاله. كنتُ أستمتع بالفرجة على تلويه يائساً في الفراغ.

فيما بعد، وَجَدَ وسط ذلك الفراغ فكرة جديدة يسلي بها نفسه، ولعل هذا بسبب بقائه وحده، أو بسبب عدم استطاعته حمل عقله ـ غير المستطيع الوقوف على أي تفصيل ـ إضافة إلى نفاد صبره. عندئذ أجبته لأنني أردت تحفيزه، ولأن ما خطر بباله شد انتباهي أيضاً، ولعلني كنت أفكر بإمكانية شد انتباهه إلي. مساء أحد الأيام دخل وقع قدميه المتجولين في البيت محدثين نقراً، وعندما قال الأستاذ ـ كما لو أنه يبحث في موضوع يومي وعادي ـ: «لماذا أنا أنا؟» أجبته مشجعاً.

بعد أن قلت له إنني لا أعرف لماذا هو هو، أضفت أن هذا السؤال يُسأل كثيراً هناك بينهم. وعندما قلت هذا لم يكن في عقلي مثال أو فكرة أسند إليها عبارتي تلك، ولا أي شيء. أردت أن أجيبه على السؤال كما يريد، ولعلني بإحساس غريزي بسيط شعرت أنه سيسرُّ منه. دهش. كان ينظر إليّ بفضول من يريدني أن أكمل. لم يصبر عندما سكت. أرادني أن أعيد: أي أنهم يسألون هذا السؤال؟ عندما رآني موافقاً له مبتسماً غضب فوراً. إنه لايسأل هذا لأنهم يسألون، وبالنسبة إليه فإن ما يعملونه لايساوي شيئاً، ثم قال بأداء غريب: «كأن صوتاً يغني باستمرار في أذني». ذكّرَتْهُ أغنية قاع أذنه بأبيه إذا كان في أذنه أغانٍ أيضاً، ولكن أغانيه مختلفة. قال: «أغنيتي تكرر اللحن نفسه دائماً». ثم أطلق كلامه كأنه خجل قائلاً «أنا أنا، آه أنا أنا...».

كدت أطلق قهقهة فأمسكت نفسي. إذا كان هذا مزاحاً ممتعاً فيجب أن يضحك. إنه لايضحك، ولكنني أدرك أنه على وشك الضحك. ما يجب عليّ عمله هو إظهار أنني منتبه للأمر المضحك من جهة، ولتعبيره عن اللحن من جهة أخرى، لأنني أريده أن يستمر هذه المرة. قلت بأنه يجب تناول اللحن جدياً، وطبعاً لم يكن سواه يردد الأغنية التي في قاع أذنه. لابد أنه وجد في كلامي سخرية، لذلك غضب. وهو أيضاً يعرف هذا. لماذا يكرر ذلك الصوت تلك العبارة التي يدفعه الفضول نحوها.

طبعاً لم أقل له إن هذا بسبب السأم، إنما بصراحة هذا ما فكرتُ فيه. أعرف أن ضيقاً كهذا يُرى عند الأولاد الأنانيين يؤدي إلى أفكار معطاءة أو عبثية، وأدرك هذا من نفسي ومن أخوتي. قلت له إن عليه ألا يفكر بسبب ذلك اللحن بل بمعناه. عندئذ خطر ببالي إمكانية جنونه في هذا الفراغ، وإمكانية إنقاذ نفسي من اليأس والخوف والملل بمتابعته. ولعلني هذه المرة سأعجب فيه حقيقة. وإذا ما فعل هذا فسيحدث شيء في حياتنا هذه المرة. قال في النهاية يائساً: «يعني ماذا أفعل؟» قلت له: فكر لماذا أنت أنت! ولكنني لم أقل له هذا بلهجة النصح، بل لأنني لم أستطع مساعدته في هذا الموضوع. قال ساخراً: «ماذا سأفعل؟ هل سأنظر إلى المرآة؟» ولكن لايبدو أنه ارتاح. سكت لكي يفكر. كرر قائلاً: «هل أنظر إلى المرآة؟». غضبت فجأة، فكرت بأن الأستاذ لن يصل إلى نتيجة وحده. أردته أن يميّز هذا. شعرت في داخلي إرادة القول بأنه لن يستطيع التفكير في شيء من دوني، ولكن لم أجرؤ، فقلت له متراخياً: انظر إلى المرآة. لا، ليست الجرأة ما افتقدت، بل القوة. وبينما كان يغلق البابَ بعنف وهو خارج قال عني بأنني مخبول.

بعد ثلاثة أيام، عندما فتحت الموضوع مجدداً ورأيت أنه يريد جر الموضوع «إليهم» مرة أخرى، أردت الاستمرار باللعبة، لأنه مهما يكن فإن توقفه عند هذا الأمر في ذلك الوقت يعطي أملاً. قلت له إنهم ينظرون إلى المرآة، حتى أنهم ينظرون أكثر مما ينظر الذين

هنا. ليست قصور الملوك والأميرات والنبلاء فقط مملوءة بالمرايا المؤطرة والمعلقة على الجدران بعناية، بل بيوت الناس العاديين أيضاً. ولم يتمادوا في هذا العمل دون سبب، بل لأنهم يفكرون بأنفسهم دائماً. سألني ببراءة وفضول أدهشاني: «أي عمل؟» ولكنه بعد ذلك ابتسم: «هذا يعني أنهم ينظرون إلى المرآة من الصباح إلى المساء!»، إنها المرة الأولى التي يسخر فيها من الذين تركتهم في بلدي. بحثت عن عبارة أجرحه فيها، ودون تفكير أو إيمان قلت: لايمكن إلا للإنسان نفسه أن يفكر بمن هو، ولكن ليس لدى الأستاذ الجرأة لهذا. استمتعت عندما رأيت وجهه مصفوعاً بالألم كما أردت.

كلفتني غالياً هذه المتعة. ليس لأنه هددني بأن يسممني ويميتني، بل لأنه طلب مني بعد عدة أيام أن أريه الجرأة التي قلت أنه لايستطيع عرضها. أردت تناول الموضوع ممازحاً في البداية، إذ أن النظر إلى المرآة ليفكر الإنسان في معرفة نفسه كان مزاحاً، وقد قلت له هذه الكلمات غاضباً من أجل إغضابه، ولكنه بدا غير مؤمن بما قلته. هددني بتخفيض كمية طعامي، وحتى بحبسي في غرفة إذا لم أرهِ جرأتي. عليّ أن أفكر من أنا، وأن أكتبه على ورقة، وسيرى كيف سيعمل هذا، وكم أنا جريء.

5

بداية كتبت عدة صفحات عن الأيام التي قضيناها في مزرعتنا في نابولي مع أخوتي وأمي وجدتي. لا أدري بالضبط لماذا شعرت بضرورة أن أتحدث عن هذا الأمر لفهم نفسي من أكون أنا. يمكن أن يكون السبب هو الشوق لتلك الأيام الجميلة التي أرغب الشعور بها بعد أن افتقدتها. فوق هذا فقد ضَغَط عليّ الأستاذ كثيراً بعد أن قلت تلك الكلمات غير الضرورية غاضباً، لهذا اضطررت للعمل على التحبيب بالتفاصيل متخيلاً أشياء ما لأقنع القارئ كما أعمل هذا الآن بالضبط. ولكنني وجدت أن الأستاذ لم يُعجب بما كتبت، وقال بأن أي شخص يمكن أن يفكر بهذا ويكتب مثله، ولايعتقد أن هذا ما يمكن للإنسان أن يعمله وهو ينظر إلى المرآة، وهذه لايمكن أن تكون الجرأة التي أرى أنها تنقص الأستاذ. كتبت عما أحسست به عند خروجي مع أبي وأخوتي إلى الصيد، حيث واجهنا دباً ألبياً لمدة طويلة، وما شعرت به بعد أن مضغ خيولنا، ومات حوذينا أمام أعيننا بالتداخل نفسه، وقدم لي الجواب ذاته: كل شخص يمكنه أن يكتب هذا.

إثر هذا قلت إن ما يفعله الجميع هناك لايختلف عن هذا، وإن الكلام الأول هو مجرد مبالغة في حالة غضب، وعلى الأستاذ ألا يتوقع مني أكثر من هذا. لكنه لم يستمع إليّ. استمريت بتدوين خيالاتي لخوفي أن يحبسني في الغرفة. وهكذا استرجعت كثيراً من

الذكريات الصغيرة الممتعة متألماً، وأعدتُ النظر فيها، وحلمت بما عشته قبل وقوعي بالأسر بحلوه ومره وعايشته: في النهاية شعرت أنني مستمتع بهذا العمل، ولم يعد ثمة ضرورة لكي يجبرني الأستاذ على الكتابة. وكلما قال لي إن هذه ليست الكتابات التي يريدها أنتقلُ فوراً إلى ذكرى أو حكاية أخرى كنت قد قررت كتابتها من قبل.

بعد فترة طويلة، عندما رأيت الأستاذ يستمتع بقراءة ما أكتب، بدأت أتحينّ الفرصة المناسبة لجذبه إلى هذا العمل. ولكي أعدّه تحدثت إليه عن بعض تجاربي عندما كنت صغيراً: حكيت له عن الخوف من ليلة أرق لاتنتهي، وإحساس بالقرب من صديق أيام الصبا، وكيف خفت عند موته أن يعتقدوا أنني مت ويدفنونني حياً معه. كنت أعرف أنه سيستمتع بهذا. بعد فترة قصيرة تجرأت وحكيت له عن حلم حلمته: جسدي ينفصل عني، ويتفق مع شبيه لي في الظلام لايُرى وجهه ويعملان ضدي. كان الأستاذ في تلك الأيام يقول إنه يسمع تلك النغمة المضحكة مجدداً، وبشكل أكثف. عندما رأيته تأثر من الحلم كما يريد قلت له ملحاً بأنه من الضروري أن يجرب هذا النوع من الكتابة. بهذا يستطيع التخلص من الانتظار غير المنتهي من جهة، ويجد الحد الفاصل الحقيقي بينه وبين المخبولين من جهة أخرى. كانوا يطلبونه من القصر أحياناً، ولكن ليس ثمة تطور ملموس. تدلل في البداية، ولكن عندما ألححت قال بفضول وخجل شديد إنه سيجرّب. ولأنه خاف من الوقوع في موقف مضحك أقدم على الممازحة: هل سننظر إلى نفسينا في المرآة معاً طالما أننا سنكتب سوية؟

عندما قال أننا سنكتب سوية لم يدر في خلدي أنه سيجلس معي إلى المنضدة نفسها. اعتقدت أنني سأعود إلى أحلام حرية العبد الكسول عندما سيبدأ بالكتابة، ولكنني أخطأت. قال: يجب أن نجلس متقابلين إلى طرفي المنضدة ونكتب، وقال: لايمكن أن نروض عقولنا الجانحة إلى الكسل أمام هذه الموضوعات الخطيرة إلا بهذه الطريقة، ولايمكن لنا إلا هكذا أن نمنح ذاتينا للشعور بالعمل

والنظام. ولكن هذه ذرائع، كان يخاف من البقاء وحده، ومن شعوره بالوحدة عندما يفكر. فهمت هذا من تمتمته المسموعة عندما واجه الورقة البيضاء. وكان ينتظر مني الموافقة على ما سيكتبه مسبقاً. بعد أن كتب عدة جُمل بدأ يُقرئني ما كتب بفضول وغرور أقل يُذكّر بتواضع طفولي: هل لكتابة هذا قيمة يا ترى؟ طبعاً كنت أوافقه.

وهكذا علمت عن حياته في شهرين ما لم أعلمه في إحدى عشرة سنة. كانوا يعيشون في أدرنة حيث ذهبنا إليها فيما بعد مع السلطان. مات أبوه باكراً جداً إذ أنه لايذكر وجهه تماماً. أمه امرأة نشيطة. تزوجت مرة أخرى فيما بعد. لديها من زوجها الأول ولدان أحدهما ذكر والثاني أنثى. أما من زوجها الثاني فصار لها أربعة أولاد ذكور، وهذا الرجل منجّد لحف. طبعاً كان الأخ الأكثر توقعاً للعلم. وعلمت أنه الأخ الأذكى والأنجح والأنشط والأقوى بين أخوته، كما أنه الأصدق. يذكر أخوتَه بكراهية عدا أخته، ولكنه غير واثق فيما إذا كانت هذه الأشياء تستحق الكتابة أم لا. شجعته لأنني شعرت منذ ذلك الوقت بدافع غريزي أن هذا الأسلوب، وقصة الحياة ستكون لي فيما بعد. ثمة ما أحببته في لغته وموقفه أردت معرفته. على الإنسان أن يحب الحياة التي سيختارها فيما بعد، وأنا أحببتها. طبعاً هو يعتقد أن أخوته كلهم مخبولون، ولايبحثون عنه إلا من أجل طلب النقود، أما هو فقد أعطى نفسه للقراءة. قُبل في مدرسة السليمية، وعندما كان على وشك التخرج تعرض لافتراء. لم يعد إلى هذه المشكلة مرة أخرى، ولم يذكر النساء. في البداية كتب مرة أنه كان على وشك الزواج، ولكنه إثر ذلك مزّق ما كتبه غاضباً. كانت تمطر في تلك الليلة مطراً قذراً، وكانت الليلة الأولى من تلك الليالي المخيفة التي عشتها فيما بعد. أنّبني بعد أن قلت إن ما كتبَه كذب، وحاول الكتابة من جديد. ولأنه طلب مني الجلوس مقابله والكتابة، قضيت ليلتين دون نوم. لم يعد يلقي ولو نظرة على ما كتبه. كنت أجلس إلى الطرف الآخر من الطاولة وأكتب الأمور ذاتها غير ضاغط على خيالي، متابعاً له بطرف عيني.

بعد عدة أيام بدأ يكتب كل صباح على ذلك الورق النظيف الغالي: «لماذا أنا أنا؟» ولكنه تحت هذا العنوان لم يكتب غير حماقات الآخرين وسفالاتهم. وعلمت منه أيضاً أن حقه أُكِل بعد موت أمه، وأنه جاء إلى اسطنبول بالنقود التي وصلت إلى يده، وتردد فترة إلى إحدى التكايا، ولكنه تركها بعد رؤيته أن من فيها كلهم سافلون ومنافقون. حاولت أن أجعله يحكي أكثر عن مغامرته تلك في التكية، واعتقدت أن تخلصه منها هو نجاح حقيقي للأستاذ. استطاع فصل نفسه. غضب عندما قلت له هذا. وقال بأنني يمكن أن أستخدم تلك التفاصيل القذرة ضده في يوم ما، وما علمته حتى الآن هو زائد عن الحد أصلاً، فوق هذا فإن طلبي معرفة تفاصيل من نوع ـ استخدم هنا إحدى الكلمات الجنسية الفظة ـ جعله يشتبه بي. بعد ذلك حكى مطولاً عن أخته (سمرا) وعن طيبتها، وسوء زوجها، وعن الحزن الذي يشعر به لعدم رؤيته لها منذ سنوات طويلة. ولكنه شكّ باهتمامي في هذا الموضوع، فانتقل إلى موضوع آخر: كيف اشترى بالنقود المتبقية معه كلها كتباً، ولم يعمل شيئاً سوى القراءة لفترة طويلة، بعد ذلك كيف عمل هنا وهناك في أعمال كتابية متواضعة، وشرح كم أن الناس عديمو الشرف، وتذكر صادق باشا الذي تلقينا خبر وفاته في أرزنجان قبل فترة قصيرة. ففي تلك الأثناء تعرف إليه، وملأ عينيه فوراً بحبه للعلم، وهو الذي وجد له وظيفة التعليم في مدرسة الأولاد، ولكنه في الحقيقة مجرد مخبول. في نهاية الأعمال الكتابية هذه المستمرة شهراً سيطر عليه الشعور بالندم ليلة ما، فمزّق كتبه. لهذا السبب فإنني لا أخاف أبداً من الانجراف وراء التفاصيل المحببة لي وأنا أعيد صياغة ما كتبه، وماضيّ اعتماداً على قوة مخيلتي. وبانفعال أخير كتب أموراً حول تصنيف المخبولين تحت عنوان: «المخبولون الذين عرفتهم عن قرب» ولكنه غضب. لم توصله تلك الكتابات كلها إلى مكان معين، ولم يتعلم شيئاً جديداً. ولم يعرف لماذا هو هو في تلك الفترة. قال

إنني خدعته، وذكرته مجدداً بما لايريد تذكره دون جدوى، وأنه سيعاقبني.

في تلك الأيام، لا أدري لماذا تعلقت كلمة العقاب في عقله. تلك الكلمة التي تذكرني بالأيام الأولى التي قضيتها معه. أحياناً أفكر أنني أمنحه الجرأة لأنني شخص خوّاف وعاقل يسمع الكلام. كما أنني قررت مقاومة ذكره العقاب أول مرة. عندما ملّ الأستاذ جيداً من التذكر بدأ يتجول داخل البيت صاعداً نازلاً. بعد ذلك أتى إليّ، وقال: يجب علينا أن نكتب الفكرة الأساسية. كما يتفرج الإنسان على منظره وهو ينظر إلى المرآة، يمكنه أن يتفرج على جوهره وهو ينظر إلى داخل فكره.

أثارني الأمر البراق الذي أومأ بالتشبيه به. جلسنا إلى طرفي المنضدة فوراً. هذه المرة كتبت في رأس الصفحة بسخرية تقريباً: «لماذا أنا أنا؟». ولأن ما خطر ببالي في ذلك الوقت هو خصوصيتي الشخصية، بدأت فوراً بكتابة خاطرة طفولية تحكي عن خجلي. وعندما قرأت ما كتبه الأستاذ المتشكي من مساوئ الآخرين مرة أخرى، خطرت ببالي من جديد فكرة آمنت بأهميتها، وطرحتها: على الأستاذ أن يكتب عن مساوئه. ولأنه قرأ ما كتبته في تلك الأثناء قال إنه ليس خوافاً. عارضته. نعم، إنه ليس خوّافاً ولكن ثمة أشياء سلبية فيه ككل الناس، وإذا توقف عندها سيجد نفسه. أنا فعلت هذا، ويريد أن يكون مثلي، وعندما قلت له إنني أشعر بهذا رأيت أنه قد غضب، ولكنه تمالك أعصابه، وقال محاولاً أن يكون متوازناً: من المؤكد أن الآخرين ليسوا كلهم سيئين، ولكن لأن لدى الآخرين جوانب نقص وسلبيات فإن كل شيء خاطئ وفق هذا. إثر هذا عارضته قائلاً: إن لديه جوانب سلبية، وسلبية جداً، ويجب أن يعرفها. وأضفت بفظاظة: الأستاذ أسوأ مني.

وهكذا بدأت تلك الأيام السيئة المضحكة والمخيفة. كان يربطني إلى الكرسي بعد أن يجلسني خلف الطاولة، ثم يقف أمامي

ويأمرني بكتابة ما يريد. ولكنه لم يعد يعرف من هو. لم يكن في عقله شيء غير ذلك التشبيه. على الإنسان أن يراقب ما بداخل عقله بالتفكير كما يستطيع رؤية ظاهره بالمرآة. يدّعي أنني أعرف كيف أعمل هذا، ولكنني أخفي سري هذا عنه. وبينما كان الأستاذ يجلس أمامي منتظراً أن أكتب هذا السر ملأت الأوراق بحكايات مساوئي مبالغاً بها. كنت أكتب مستمتعاً ومبالغاً عن السرقات الصغيرة التي ارتكبتها في طفولتي، وكذب غيرتي، وما حبكته من ألاعيب ماكرة لأحبب بنفسي أكثر من أخوتي، وعن حماقات شبابي الجنسية. بعد أن يقرأ الأستاذ ما كتبتُه فضولاً وخوفاً ومتعة مدهشة يزداد غضباً مني، ويريد تعذيبي مع فقدانه السيطرة على أعصابه. لعله يتمرد لعدم احتماله مساوئ ماضيّ الذي يشعر أنه سيتبناه. بدأ يضربني مباشرة. بعد أن يقرأ عن ذنب من ذنوبي يقول: «آه منك يا عديم الشرف» ثم يُنزل لكمة على ظهري بمزيج من الغضب والممازحة. وأحياناً لايستطيع التماسك فيصفعني على وجهي. يمكن القول بأنه يعمل هذا نتيجة السأم، لأنه يُطلب إلى القصر أقل من السابق، كما آمن بأنه لم يعد ثمة ما يهتم به غيري وغير نفسه. ولكن مع قراءته مساوئي، وازدياد عقوباته الصغيرة الطفولية سيطر عليّ شعور غريب بالثقة. إنها المرة الأولى التي شعرت فيها أنني وضعته في كفي.

في إحدى المرات، بعد أن آلمني كثيراً، وجدته قد أشفق علي. وهذا شعور مركّب من السوء والقرف إزاء شخص لايراه الإنسان مساوياً له، وأفهم من قدرته على النظر إليّ دون كره أنه على هذا النحو. قال: «صار عليّ أن أكتب» بعد ذلك صحح قائلاً: «لاأريدك أن تكتب» ولأنني عندما كنت أكتب مساوئي على مدى أسابيع كان يتفرج فقط. قال: يجب علينا الخروج من البيت المدفون بقسوة تتعمق تدريجياً، والذهاب في نزهة، يمكن أن تكون إلى غبزة. سيعود مجدداً إلى أعمال الفلك، وكان يفكر بكتابة أطروحة أكثر جدية حول حياة النمل. خفت لرؤيتي أنه يفقد احترامه لي كاملاً،

ولكي أحافظ على اهتمامه بي لفقتُ حكاية تستهين بي بعيار أثقل. بعد أن قرأ الأستاذ ما كتبته راغباً ومستمتعاً لم يغضب مجرد غضب. صرت أشعر أنه صار فضولياً لمعرفة كيف أتحمّل أن أكون إنساناً بهذا السوء. ولعله في تلك الفترة كان راضياً أن يبقى كما هو حتى النهاية. بالتأكيد هو يعرف أن هذا جزء من لعبة. حكيت في ذلك اليوم مثل مهرّج في قصر يعرف أنه لايُعدّ رجلاً، وعملت على استفزاز فضوله المتزايد: ماذا سيفقد لو حاول للمرة الأخيرة قبل الذهاب إلى غبزة وكتب عن نفسه وعن مساوئه ليعرف كيف يمكنني أن أكون شخصاً مماثلاً له على هذا النحو! فوق هذا ليس ثمة ضرورة أن يكون ما كتبه صحيحاً، أو يقتنع به أحد. لو فعل هذا سيفهمني ويفهم أمثالي، ويمكن أن تفيده تلك المعلومة! في النهاية لم يستطع مقاومة فضولي وكثرة كلامي، فقال إنه في اليوم التالي سيجرب. وطبعاً لم ينس إضافة أنه لن يعمل هذا لأنه خُدع بي وبألعابي المجنونة، بل لأنه يريد هذا من نفسه.

كان اليوم التالي أمتع أيام عبوديتي. لم يعد يربطني إلى الكرسي، ولكنني قضيت اليوم كله جالساً أمامه، مستمتعاً بمراقبة تحوله بطيئاً إلى إنسان آخر. كان مؤمناً بما يعمله بداية إلى حد أنه لم يَتُقْ لكتابة العنوان المضحك: «لماذا أنا أنا؟»، بعد ذلك تقمّص ثقة ولد صغير مرح يبحث عن كذب مسل، وكنت أرى بطرف عيني أنه مازال في دنياه السليمة. ولكن هذه الثقة الفارغة لم تستمر طويلاً فخلال فترة قصيرة تحوّلت السخرية التي تقمصها إلى قلق، واللعب إلى واقع. واتهام الأستاذ نفسه خوّفه بشكل مدهش حتى ولو كان ذلك الاتهام كذباً. شطب فوراً فوق ما كتب دون أن يُريني إياه. ولكنه دخل حالة الفضول، وأعتقدُ أنه كان يخجل مني فاستمر. كان يمكنه أن يخلّص نفسه دون إقلاق راحته لو عمل ما خطر بباله أولاً ونهض عن المنضدة فوراً.

في الساعات التالية تفرجت على تفككه ببطء. كان يكتب أموراً يتهم فيها نفسه، وبعد ذلك يمزق ما كتبه دون أن يريني إياه. في كل

مرة يفقد ثقته بنفسه واحترامه لها، ولكنه يعود للبدء من جديد على أمل إيجاد ما افتقده. حسب قوله كان سيريني اعترافاته بالمساوئ تلك، ولم أر كلمة واحدة من تلك الكلمات التي كنت أتوق جداً لقراءتها عندما يحل الظلام، فقد مزقها كلها ورماها. استنفد الأستاذ قوته. وبينما كان يقول لي إن هذه لعبة كافر قذرة، ويوجه لي الشتائم، كانت ثقته بنفسه قد ضعفت إلى حد أنني أجبته بفظاظة قائلاً: إن عليه ألا يحزن كثيراً، وسيعتاد على أن يكون سيئاً. ولعله بسبب عدم احتماله نظراتي خرج من البيت وذهب. عاد إلى البيت ليلاً في وقت متأخر. فهمت من الرائحة المعشعشة فيه أنه ذهب إلى ذلك البيت، وصدق توقعي. ذهب إلى ذلك البيت لمضاجعة النساء الساقطات.

في اليوم التالي، من أجل استفزاز الأستاذ للاستمرار بالعمل، قلت له بأنه قوي إلى حد عدم جرحه بألاعيب صغيرة كهذه. ثم إننا لانعمل هذا من أجل تمضية الوقت بل من أجل تعلم أمور ما. في نهاية هذا العمل فهم سبب خبل الذين نقول أنهم مخبولون. أليست معرفتنا بعضنا البعض حتى النهاية عمل فيه كفاية من الجذب؟ وطرحت أن الإنسان يحب سحر التعرف إلى أدق تفاصيل إنسان يعرفه كما يحب حلماً مخيفاً.

جلس إلى الطاولة مجدداً ليس بسبب هذه العبارة التي أخذها على محمل أخذه تهريج أحد أقزام القصر، بل بسبب الثقة التي منحه إياها ضوء النهار. حين نهض من وراء المنضدة مساءً كانت ثقته بنفسه أقل منها في اليوم السابق. وعندما رأيته ذاهباً إلى النساء ليلاً مرة أخرى أشفقت عليه.

هكذا صار يجلس كل صباح إلى الطاولة معتقداً أنه سيصعد فوق المساوئ التي سيكتبها في ذلك اليوم آملاً باستعادة ما فقده قبل يوم، ثم ينهض تاركاً بعض ما بقي لديه على الطاولة. صار يستخف بي لأنه يستخف بنفسه، وفي النهاية أعتقد أنني وجدت شعور المساواة بمخاتلة بصرية في الأيام الأولى معه، وهذا ما سرّني.

ولأنه قلق من ناحيتي قال لي إنه ليس من الضروري أن أجلس إلى الطاولة مقابله وهذه إشارة جيدة، ولكن غضبي المتراكم على مدى سنوات أجج انفعالي وغمّي. كنت أريد التحول إلى الهجوم والانتقام، وقد فقدت السيطرة على بيضة القبّان مثله: إذا أوقعت الأستاذ بالشك في نفسه أكثر، وإذا قرأت قليلاً من اعترافاته تلك التي يخبئها عني بعناية، واستهنت به بدقة، يبدو لي أنني لن أبقى العبد، بل هو، ولن أبقى إنسانَ البيت السيء بل هو. ثمة مؤشرات على هذا. أُدرك أحياناً أنه يريد الوثوق مما إذا كنتُ أسخر منه أم لا. وبدأ ينتظر موافقتي مثل الناس الضعفاء الذي لايثقون بأنفسهم. صار يسألني عن رأيي بالمواضيع اليومية الصغيرة أكثر: هل ألبستُه في مكانها؟ هل الجواب الذي أجاب به لإنسان معين جيد؟ هل أجد خط يده جميلاً؟ ما هو رأيي؟ أحياناً يسيطر عليّ شعور باليأس فأهين نفسي لكي لايترك اللعبة، ويرتاح، وينظر إليّ تلك النظرات التي تعني: «آه منك، آه»، ولكنه لم يعد يلكمني كما كنت واثقاً أنه يفكر بأنني أستحق اللكم.

لدي فضول شديد لمعرفة تلك الاعترافات التي جعلته يرى نفسه مهاناً إلى ذلك الحد. في تلك الأيام فكرت - حتى بيني وبين نفسي - أن اعترافاته عبارة عن مجموعة مساوئ بسيطة وتافهة لأنني اعتدت على الاستهانة به. والآن لكي أجعل ماضيّ مقنعاً قلت لنفسي لأتخيّل تفصيلاً أو اثنين من تلك الاعترافات التي لم أقرأ منها سطراً واحداً، فلم أستطع بأي شكل إيجاد سيئة تناسب الأستاذ بحيث لاتخرب توازن حكايتي وحياتي المتخيلة. ولكنني أستطيع توقع أن من كان في وضعي سيستعيد الثقة بنفسه مجدداً. لابد أنني جعلت الأستاذ يكتشف أمراً دون أن ينتبه، وأنني أخرجتُ نقاط ضعفه، ونقاط ضعف أمثاله، وإن لم يكن بشكل واضح وحاد! كما لابد أنني فكرت بأن الأيام التي سأحرق نَفَسَهُ فيها، ليس وحده بل الآخرين أيضاً، ليست بعيدة، سأهدمهم بإثبات أنهم سيئون. لابد أن الذين يقرؤون حكايتي أدركوا أنني يجب أن أكون قد تعلمت من الأستاذ

بقدر ما تعلمه مني! لعلني أفكر في هذا لأن الإنسان عندما يتقدم في السن يبحث أكثر عن التناظر حتى في الحكايات. لابد أن أكون قد جشتُ بانفعال حقدي المتراكم على مدى سنوات. بعد أن أجعل الأستاذ يهين نفسه جيداً، سأجعله يقبل تفوقي، أو على الأقل حريتي، وبعد ذلك سأطلب منه ورقة تحرري بفظاظة. أحلم بأنه سيطلقني دون أدنى تردد، وأفكر بتفاصيل الكتب التي سأكتبها عن حكايتي، وعن الأتراك عندما أعود إلى بلدي. يالبساطة افتقادي لضوابطي! خبرٌ نقله لي صباح أحد الأيام غيّر كل شيء.

ظهر وباء في المدينة، ولأنه لم يخبرني بالأمر بطريقة تدل أنه ظهر هنا في اسطنبول، بل كأنه في مدينة بعيدة لم أصدقه في البداية. سألته كيف تلقى الخبر، وأردت معرفة التفاصيل. وجدوا فجأة تزايد عدد الذين يموتون ففهموا أن ثمة مرضاً! فكرت أنه من الممكن ألا يكون وباء، وسألت عن ظواهر المرض. ضحك الأستاذ وقال يجب عليّ ألا أهتم، إذا أصابني الوباء سأفهم فوراً، ولكي يفهم الإنسان أنه أصيب سيشهد ثلاثة أيام من حرارة المرض. سيصير هناك انتفاخات تحت الأذنين، وتحت الإبطين، وفي البطن، ويظهر ما يشبه الخيار الصغير، بعد ذلك ترتفع الحرارة، وأحياناً تتفتق القروح، وأحياناً ينزف الدم من الرئتين، وهناك من مات وهو يكح مثل المسلولين، وأضاف بأن هناك ثلاثة إلى خمسة أشخاص ذهبوا ضحايا من كل حي. سألته عن حيِّنا بانفعال، فقال أما سمعت بالمعلم البنّاء المتخاصم مع أبناء الحي كلهم لأن أولاده يأكلون التفاح من حدائقهم، ويقفز دجاجهم فوق الجدران؟ مات قبل أسبوع وهو يغلي من الحرارة، ويصرخ. وفهم الجميع حديثاً أنه مات بالوباء.

لكنني لا أريد تصديق هذا أيضاً، كل شيء في الخارج طبيعي جداً، والناس الذين يمرون من أمام النافذة ساكنون إلى حد أنني شعرت بضرورة إيجاد من يقاسمني هلعي لكي أؤمن بوجود الوباء. صباح اليوم التالي عندما ذهب الأستاذ إلى المدرسة، اندفعت إلى

الزقاق. بحثت عن ذوي الأصول الإيطالية الذين أعرفهم على مدى إحدى عشرة سنة. أحدهم ـ ويدعى باسمه الجديد المعلم مصطفى ـ ذهب إلى ميناء بناء السفن، والآخر عثمان أفندي، لم يدخلني إلى بيته بدايةً رغم طرقي بابه لكماً، وأمر خادمه أن يقول لي بأنه غير موجود في البيت، ولكنه لم يحتمل هذا فناداني بعد ان قفلت عائداً. قال كيف أسأل بعد كل هذا عما إذا كان المرض حقيقة؟ ألا أرى التوابيت التي تُحمل كل يوم؟ بعد ذلك قال إنني خائف، وقد فهم هذا من وجهي، وسبب خوفي إصراري على مسيحيتي! أنبني، وقال إن الإنسان إذا أراد أن يكون سعيداً هنا فعليه أن يكون مسلماً، ولكنه قبل أن يغلق على نفسه باب داره المظلمة الرطبة لم يصافحني، ولم يلمسني. كان يسيطر عليّ الشعور بالخبل والدهشة ذاك الذي يعشعش في الإنسان ساعة الكارثة. كأنني نسيت ماضيَّ، وافتقدت لون وعيي وتربطت. وعندما رأيت في الحي تابوتاً تحمله جماعة توترت أعصابي تماماً.

عاد الأستاذ من المدرسة وشعرت أنه فرح كثيراً عندما رأى حالتي. ولأنه وجدني خائفاً كنت أرى أن ثقته بنفسه ازدادت، فتوترت أعصابي. أردت أن يتحرر اللاخوف من التباهي الأجوف. عملت على ضبط انفعالي، وألقيت بمعلوماتي الطبية والأدبية كلها، وحكيت عن مشاهد الوباء المتبقية في ذاكرتي من هيبوقراط وتوكيدس وبوكاسيو، وقلت: ثمة اعتقاد بأن المرض سار، ولكن كلماتي لم تفد سوى في التمادي بنظرته المهينة، وقال: إنه لايخاف من الوباء، لأن المرض مشيئة الله، وإذا انتهى عمر الإنسان فسيموت، لهذا فإنه من غير المفيد حبس النفس في الدار، وقطع العلاقات مع الخارجِ كما أطلق أنا من هراء، أو الهرب من اسطنبول. إذا كان الموت قد كُتب علينا فسيأتينا هناك أيضاً، فلِمَ سأخاف؟ هل بسبب المساوئ التي كتبتها على الورق طيلة أيام. لو أنه لم يضحك وهو يقول هذا. كانت عيناه تبرقان بالأمل.

لم أستطع الفهم إن كان مؤمناً بتلك العبارات أم لا، حتى افتقد

كل منا الآخر. خفت من فجاجته للحظة، ولكن فيما بعد شككت بالأمر عندما تذكرت ما تحدثنا به ونحن جالسان إلى الطاولة، وتلك الألعاب المخيفة. ندور وندور وينتهي بنا الكلام إلى المساوئ التي كتبناها، ويطرح الرؤية نفسها معجباً بذاته بشكل يخرجني عن طوري: بما أنني أخاف من الموت إلى هذا الحدّ فهذا يعني أنني لم أتجاوز مساوئي التي أظهر أنني كتبتها بجرأة. والجرأة التي أظهرتها عند طرحي ذنوبي نابعة عن تمادٍ في وقاحة عادية! أما التردد الذي عاشه الأستاذ في تلك الأيام فهو ناجم عن انتباهه الشديد الذي يفسخ الشعرة إلى نصفين لمساوئه. صار مرتاح الضمير الآن، فالخوف الشديد الذي يشعر به في مواجهة الوباء جعله يؤمن وبقلب مرتاح أنه بريء.

قررت أن أجادله شاعراً بالقرف من تفسيره ذلك الذي أجده خبلاً. قلت ببراءة إن عدم الخوف لاينتج عن راحة الضمير بل عن عدم معرفة أن الموت قريب جداً. شرحت له أنه بإمكاننا الحذر من الموت، وقلت له يجب علينا ألا نلمس المصابين بالوباء، وأن ندفن الموتى في حفر مطلية بالكلس، ونخفّض العلاقات بين الناس إلى الحد الأدنى، وألا يذهب الأستاذ إلى تلك المدرسة المزدحمة.

ما قلته أخيراً جلب إلى عقله ما هو مخيف أكثر من الوباء! بعد ظهر اليوم التالي قال إنه لمس الأولاد كلهم، ومد يديه نحوي، وعندما رأى أنني لا أريد لمسه اقترب مني مستمتعاً واحتضنني. كنت أشعر أنني بحاجة إلى الصراخ ولكن صوتي لاينطلق كما في الأحلام. أما الأستاذ فكان يقول وبسخرية اكتشفتها بعد زمن طويل أنه سيعلمني اللاخوف.

6

كان الوباء ينتشر بسرعة، ولكنني لم أستطع تعلم ما دعاه الأستاذ اللاخوف بأي شكل من الأشكال، مع أنني لم أعد أحصّن نفسي كما في الأيام الأولى. نفد صبري لانحباسي في غرفة لأيام كامرأة طريح الفراش، وفرجتي من النافذة. أحياناً أندفع خارج البيت كالسكارى، وأتجوّل في الأزقة متفرجاً على النساء المتسوِّقات، والمهنيين الممارسين أعمالهم في دكاكينهم، والمجتمعين في المقاهي بعد دفن أقربائهم، عاملاً على اعتياد حالة الوباء. لعلني كنت سأعتاد قليلاً، ولكن الأستاذ ضغط علي كثيراً.

ليلاً كان يمد إليّ يديه قائلاً إنه لمس بهما الناس طوال النهار، فكنت أنتظر دون حراك. كيف تستيقظون من النوم فتجدون عقرباً يمشي فوقكم فتتحجرون؟ هكذا أغدو! لم تكن أصابعه تشبه أصابعي. وبينما كان يمررها ببرودة شديدة سألني الأستاذ: «هل تخاف؟» لا أتحرك «إنك خائف، لماذا تخاف؟» أحياناً أشعر أنني سأدفع يده وأعاركه، ولكنني أعرف أن هذا سيزيد غضبه «أنا سأقول لك لماذا تخاف. أنت تخاف لأنك مذنب. تخاف لأنك غارق بالحرام. إنك تخاف لأنك تثق بي أكثر مما أثق بك».

هو الذي قال أيضاً بأنه يجب علينا الجلوس متقابلين إلى طرفي الطاولة ونكتب عن أمرٍ ما. هذا هو الوقت الحقيقي الذي يجب

أن نكتب فيه لماذا نحن؟ وأنا؟ ولكنه في النهاية لم يكتب سوى لماذا الآخرون هكذا؟ إنها المرة الأولى التي يريني فيها ما كتب متباهياً. لا أدري لماذا لم أستطع إخفاء فكرة قرفي من توقعه وخجلي مما قرأته، وقلت للأستاذ بأنه يضع نفسه في الكفة نفسها مع مخبوليه، وأنه سيموت قبلي.

في تلك الأثناء قررت أن كلماتي تلك كانت السلاح الأمضى. إثر هذا ذكرته بعمله على مدى عشر سنوات، فحدثته عن السنوات التي هدرها من أجل نظرية الكوزموغرافيا، وعن مراقبته السماء ساعات طويلة لا مبالياً بتخريب عينيه، وعن الأيام التي لم يرفع فيها أنفه عن الكتب، هذه المرة هاجمته قائلاً: طالما أن الاستمرار بالحياة والتحصن من الوباء ممكن فيالعبثية الموت للاشيء. كلماتي زادت عقوباتي كما زادت شبهاته. عندما قرأت ما كتبته في تلك الأثناء شعرت أنه عاد لإيجاد الاحترام المفقود الذي كان يكنه لي وبإرادة.

ولكي أنسى نحسي ملأت الصفحات بالأحلام السعيدة التي كنت أراها كثيراً في تلك الأيام، ليس في الليل فقط، بل عند نومي بعد الظهر أيضاً. من أجل أن أنسى كل شيء كتبت تلك الأحلام التي يتوحد فيها المعنى والحركة بلغة شعرية مزركشة: بين أشجار الغابة المجاورة لبيتنا ثمة أناس يعرفون الأسرار التي نريد معرفتها منذ سنوات طويلة، وعندما تجرؤون على الدخول إلى الغابة تصيرون أصدقاءهم، وحين تغيب الشمس لاتزول ظلالكم. بينما ننام في فرشنا الدافئة المنعشة مرتاحين تمر علينا آلاف الأشياء الصغيرة التي نريد تعلمها، وننتبه إليها مرة بعد مرة دون أن نتعب. الناس الذين أرسمهم في الأحلام لايبقون عند حدود التحول إلى أناس بثلاثة أبعاد، بل يخرجون من الإطارات ويختلطون بنا. نركب - أمي وأبي وأنا - في حديقتنا الخلفية أدوات فولاذية تعمل مكاننا.

يشعر الأستاذ أن تلك الأحلام عبارة عن أفخاخ شيطانية، ستسحبه إلى ظلمة المعلومة الفانية، ولكنه يسألني وهو يعرف أنه

بهذا يفقد قليلاً من ثقته بنفسه: ما هو تفسير تلك الأحلام العبثية؟ هل أراها فعلاً؟ وهكذا تصرفت معه كما سنتصرف بعد سنوات طويلة مع السلطان، واستنتجت نتائج حول نهايتينا من أحلامي: من الواضح أن الإنسان إذا أصيب بعدوى مرض العلم فلا يستطيع الهرب، تماماً كما الإصابة بالوباء. وليس من الصعب القول أن الأستاذ قد أصيب بالعدوى، ولكن لابد للمرء من التوق لمعرفة أحلام الأستاذ! كان يستمع إليّ بسخرية بارزة، ولكن لأنه كسر تباهيه إلى حد طرحه سؤالاً، فلم يستمر بمهاجمتي، ثم إنني أرى أثناء شرحي له أن كلامي يثير فضوله. أرى أن الطمأنينة التي تقمصها الأستاذ مع ظهور الوباء بدأت تهتز، ولكن خوفي من الموت لاينقص، أو على الأقل أعتقد أن الخوف تخلص من الوحدة. طبعاً كنت أدفع ثمن هذا أذيةً في الليل، ولكنني فهمت أن جدالي معه ليس دون جدوى. حين يقرّب الأستاذ يديه مني أذكّره بأنه سيموت قبلي، وبجهل اللاخوافين، وبكتاباته غير المكتملة، وبالأحلام السعيدة التي قرأها في ذلك اليوم.

ليست كلماتي هذه ما جعل الكيل يطفح بل أمر آخر. في أحد الأيام جاء إلى البيت والد أحد تلاميذ المدرسة. يبدو أنه رجل بحاله. قال بأنه يسكن في حينا. انسحبت إلى زاوية من زوايا البيت مثل قطة منزلية كسولة أستمع إليهما. تحدثا في مواضيع عامة مطولاً. بعد ذلك نطق الجوهرة: ترملت ابنة عمته عندما وقع زوجها من السقف الذي كان يصلح قرميده. والآن ثمة كثير من الطالبين لها، ولكن ضيفنا خطر بباله الأستاذ لأنه يعرف من أبناء الحي أنه يقبل الذين يريدون تزويجه. أظهر الأستاذ ردة فعل فظة لم أتوقعها: لايريد أن يتزوج، ولكنه إذا أراد فلن يتزوج من أرملة. إثر هذا ذكّر ضيفنا بأن محمداً تزوج من خديجة دون أن يعيقه ترملها، وهي الزوجة الأولى أيضاً. قال الأستاذ إنه يعرف تلك الأرملة وهي لاتقارن بأظفر سيدتنا خديجة. إثر هذا أراد جارنا ذو الأنف الغريب إشعار الأستاذ بأنه

ليس مندفعاً كثيراً لهذا الأمر، فقال إن أهل الحي يعتبرون الأستاذ مجنوناً، ولا أحد يفسر إيجابياً نظره إلى النجوم، ولعبه بالعدسات، وصنعه لساعات عجيبة، ولكنه لايصدّق هذا. ثم أضاف ضيفنا بحرص تاجر يسيء إلى البضاعة التي سيشتريها: يقول أهالي الحي بأن الأستاذ لايتناول طعامه جالساً متربعاً على الأرض، بل جالساً إلى المنضدة مثل الكفار، وبعد أن يدفع أكياساً من النقود للحصول على الكتب، يرمي تلك الكتب على الأرض، ويطأ بقدميه الصفحات المذكور فيها اسم محمد، ولأنه لايستطيع تهدئة الشيطان الذي في داخله بالنظر إلى السماء ساعات طويلة، يتمدد في فراشه نهاراً، وينظر إلى السقف القذر، وهو لايحب النساء بل الغلمان فقط، وأنا توأمه، ويفطر في رمضان، وقد جاء الوباء بسببه.

بعد أن صرف الأستاذ ضيفه انتابته موجة غضب عارمة، وأدركت أنه وصل إلى نهاية الشعور بالطمأنينة من مشاركة الناس مشاعرهم، أو التظاهر بهذا. ومن أجل توجيه الضربة القاضية قلت له: إن اللاخائفين من الوباء مخبولون مثل هذا الرجل. اضطرب، ولكنه قال إنه لايخاف الوباء. لسبب ما قررت أنه قال هذه العبارة من قلبه. كان متوتراً جداً، لايجد مكاناً يضع فيه يده أو ذراعه، وصار يكرر نغمة «المخبولين» التي نسيها في الفترة الأخيرة. عندما حل الظلام أشعل المصباح ووضعه وسط الطاولة وطلب أن نجلس إلى طرفيها. علينا أن نكتب شيئاً ما.

جلسنا متقابلين إلى طرفي الطاولة، مثل عازبين يستطلعان الفأل من أجل تمرير ليالي الشتاء الطويلة غير المنتهية، نسوّد على الأوراق. كنتُ أجد نفسينا مضحكين! صباحاً عندما قرأت ما كتبه الأستاذ على أنه حلم، وجدته مضحكاً أكثر من حلمي. كتب عن حلم مقتبس من أحلامي، ويُفهم من أي تفصيل منه أنه لم يُر، وهو مجرد حلم ملفّق. قال: إنه رآنا أخوين! ووجد نفسه أخاً كبيراً لي، وأنا أستمع لكلماته العلمية بهدوء. صباح اليوم التالي، عندما كنا نتناول

إفطارنا، سألني عن رأيي بالشائعات التي يتبادلها أهل الحي حول أننا أخوان. سررت بهذا السؤال، ولكنه لم يداعب غروري زيادة عن اللزوم. لم أقل شيئاً. بعد يومين أيقظني في منتصف الليل قائلاً إنه رأى حقيقة ذلك الحلم الذي كتبه. يمكن أن يكون هذا صحيحاً ولكنني لم أهتم. في الليلة التالية قال بأنه يخاف من الوباء ومن الموت حقيقة.

لأنني تضايقت من إغلاق الباب عليّ في البيت خرجت إلى الأزقة مساء: ثمة أولاد في حديقة تسلقوا وتركوا أحذيتهم تحتها، ونساء ثرثارات مصطفات أمام الصنبور لم يسكتن حتى عندما مررت بجانبهن. السوق مليء بالمتسوقين، والمتعاركين، والمخلّصين، والمتفرجين المستمتعين. كنت أعمل على إقناع نفسي بأن الوباء قد فقد قوته، ولكنني حين رأيت التوابيت تخرج متتابعة من باحة جامع البيازيد توترت أعصابي، وعدت إلى البيت مستعجلاً. حين دخلت غرفتي ناداني الأستاذ قائلاً: «تعال،انظر إلى هنا!» وفتح أزرار قميصه، وأشار إلى انتفاخ صغير، واحمرار تحت بطنه «الحشرات ملأت الأمكنة كلها». اقتربت ناظراً بانتباه شديد. كانت عبارة عن بقعة حمراءَ صغيرة، وانتفاخاً خفيفاً مثل لسعة حشرة كبيرة، ولكن لماذا يريني إياها؟ خفت من تقريب وجهي أكثر. قال الأستاذ: «لسعة حشرة، أليس كذلك؟» جس برأس أصبعه الانتفاخ «أهي بقّة؟» سكتُّ. لم أقل له أنني لم أر لسعة بقّة كهذه.

وجدت ذريعة لأبقى في الحديقة حتى مغيب الشمس. كنت أشعر بضرورة عدم بقائي في البيت، ولكن لم يخطر ببالي مكان أستطيع الذهاب إليه. كانت تلك البقعة تشبه لسعة البقّ، ولم تكن كبيرة وواسعة بقدر خُييرات الوباء. ولكن بعد قليل خطر ببالي أمر آخر، سببه هو أنني كنت أتجول بين الأعشاب المتفتقة والمتبرعمة بسرعة، فقد كنتُ أفكر بأن ذلك الاحمرار سينتفخ خلال يومين ويتفتح مثل تفتح الزهرة ليموت الأستاذ متلوياً بالألم. أقول: لعله

اندفاع جلدي ناجم عن سوء هضم، ولكنه ليس هذا. يشبه لسعة حشرة. أفكر. كان سيخطر ببالي اسمها فوراً. يجب أن تكون حشرة إقليم حار ليلية كبيرة، ولكن اسم تلك الحشرة شبه الخيالية لم يخطر ببالي أبداً، ولا من بعيد.

عندما جلسنا إلى طعام العشاء مساءً حاول الأستاذ أن يبدو مرحاً، فمزح وعلّق علي، ولكن هذا لم يستمر طويلاً. بعد زمن طويل من نهوضنا عن الطعام الذي تناولناه صامتين، وحلول ظلام ساكن دون رياح، قال الأستاذ: «أنا متضايق. داهمتني الهموم. لنجلس إلى المنضدة ونكتب بعض الأشياء». هكذا يمكن أن يسلي نفسه.

لكنه لم يكتب. وبينما كنت أكتب مرتاح البال كان ينظر إليّ بطرف عينه: «ماذا تكتب؟» كنت قد كتبت عن نفاد صبري بعد أن أنهيت السنة الدراسية الأولى من مدرسة الهندسة، وأنا عائد إلى بيتي على عربة ذات حصان واحد في بداية العطلة. قرأت له ذلك. ثم قرأت أنني كنت أحب مدرستي وزملائي كثيراً، وتذكرتهم واشتقت إليهم وأنا أقرأ الكتب التي جلبتها معي إلى الشاطئ. بعد صمت قصير سألني الأستاذ فجأة كأنه يهمس لي بسر: «هل يعيشون سعداء دائماً هكذا هناك؟» اعتقدت أنه سيندم بعد سؤاله مباشرة، ولكنه مازال ينظر إليّ بفضول طفولي. همست له أيضاً: «أنا كنت سعيداً!» بدت على وجهه غيرة حقيقية، ولكنها ليست مخيفة. فروى لي خجلاً.

قال: إنه عندما كان في أدرنة ـ في الحادية عشرة من عمره ـ كان يذهب مع أمه وأخته إلى دار الشفاء التابعة لجامع البيازيد، لأن والد أمه يشكو من مرضٍ في معدته. صباحاً كانت أمه تترك أخاه الأصغر الذي لايستطيع المشي بعد عند الجيران، وتذهب مع الأستاذ وأخته حاملة وعاء من المهلبية أعدته باكراً من طريق قصير ومسلٍ تظلله أشجار الحور. كان جده يحكي لهم الحكايات. الأستاذ يحب تلك الحكايات، ولكن لأنه يحب المشفى أكثر كان يهرب ويتفرج على أرجائه. في إحدى المرات استمع إلى الموسيقى المعزوفة من أجل

المجانين تحت قبة واسعة تضاء من منارتها، وثمة صوت ماء، ماء متدفق، بعد ذلك يتجوّل في غرف فيها زجاجات ملونة غريبة، وأوعية تتلامع بالبريق. في إحدى المرات ضيّع طريقه، وبدأ يبكي، فجعلوه يتجول في غرف المشفى كلها حتى وجد غرفة عبد الله أفندي. أمه كانت تبكي أحياناً وهي تستمع مع ابنتها إلى حكايات جده، بعد ذلك يأخذون الوعاء الفارغ الذي يعيده لهم جده ويعودون. وقبل وصولهم إلى البيت تشتري لهما أمهما الحلاوة، وتقول لهما: لنأكلها دون أن يرانا أحد. كان لهم مكان بين أشجار الحور على حافة الماء، يجلس ثلاثتهم مادِّين أرجلهم نحو الماء، ويأكلون دون أن يراهم أحد.

حين سكت الأستاذ خيم صمت مقلق قرّب الواحد منا نحو الآخر بشعور أخوّة غريب. قاوم الأستاذ هذا القلق مدة طويلة. بعد ذلك عندما أُغلق باب دار قريب ضخم بشكل أهوج محدثاً ضجيجاً، قال إنه شعر بالتعلق بالعلم أول مرة في تلك الأثناء، بسبب المرضى والزجاجات الملونة والأوعية والموازين التي تمنحهم الشفاء. ولكن عندما مات جده لم يذهب إلى هناك مرة أخرى. كان الأستاذ يحلم دائماً أنه سيكبر، ويذهب وحده. ولكن نهر (طونجا) فاض في إحدى السنين، فأخرجوا المرضى من أسرّتهم، ولم يستطيعوا متح الماء العكر والقذر الذي ملأ غرف المشفى لمدة طويلة، وعندما انحسر بقي المشفى الجميل وسط طين ملعون كريه الرائحة كأنه غير منظف منذ سنوات طويلة.

لمّا سكت الأستاذ لم يكن كل منا قريباً من الآخر. نهض من وراء المنضدة. كنت أرى ظله المتجوّل في الغرفة بطرف عيني، بعد ذلك أخذ المصباح الموضوع وسط الطاولة، وانتقل إلى ورائي. لم أعد أرى الظل أو الأستاذ. أردت الالتفات والنظر إليه، ولكنني لم أستطع. كأنني قلقٌ أتوقع سوءاً. بعد قليل سمعتُ حفيف ثوب يخلع فالتفتُّ خائفاً. كان عارياً من الخصر إلى الأعلى واقفاً أمام المرآة، ويمعن النظر في صدره وبطنه الذي ينيره بالمصباح. قال: «يا الله، أي

اندفاع جلدي هذا؟» سكتُّ «تعال وانظر إليه». لم أستطع التحرك من مكاني. صرخ: «أقول لك تعال!» اقتربتُ منه خائفاً كتلميذ سيعاقب.

لم أقترب من جسده العاري كثيراً. لم أكن أحب هذا الاقتراب. بدايةً أردت إقناع نفسي أنني لم أقترب منه لسبب آخر، ولكنني أعرف أنني أخاف من الاندفاع الجلدي. هو أيضاً فهم هذا. ولكي أحول دون فهمه هذا قرّبت رأسي، وبموقف حكيم ركزت نظري على الانتفاخ والاحمرار متمتماً. قال الأستاذ في النهاية: «أنت خائف أليس كذلك؟» ولإثبات أنني غير خائف قربت رأسي أكثر. «أنت تخشى أن تكون خُبيرة وباء». تظاهرت بعدم سماع تلك الكلمة. كنت سأقول بأنها لسعة حشرة. يجب أن تكون قد لسعتني مرة حشرة غريبة من قبل، ولكن لم يخطر ببالي اسم تلك المخلوقة بعد. قال الأستاذ: «المسها. كيف يمكنك إدراك هذا دون لمسها. المسْني!».

فرح عندما رأى أنني ألمسه. قرّب أصابعه ـ التي مر بها فوق الانتفاخ ـ من وجهي. وعندما رآني جفلت قرفاً أطلق قهقهة. سخر مني لخوفي من لسعة حشرة بسيطة، ولكن هذا الفرح لم يستمر طويلاً. انزلق لسانه بقول: «أنا أخاف من الموت» كأنه يتحدث عن أمر آخر، ويسيطر عليه شعور بالغضب أكثر من شعور الخجل. إنه غضب شخص تعرض للظلم. عندما ألح قائلاً: «أليس فيك مثل هذا الاندفاع الجلدي؟ هل أنت واثق؟ اخلع ثيابك» خلعت قميصي مثل طفل يكره الاغتسال. كانت الغرفة دافئة، والنافذة مغلقة، ولكن ثمة نسمة خفيفة البرودة. لا أدري إذا كانت برودة المرآة هي التي أخافتني. ولخجلي من منظري خطوت خطوة فخرجت خارج إطار المرآة. هذه المرة كنت أرى وجه الأستاذ جانبياً وهو يقرب رأسه من جذعي. إن ذلك الرأس الضخم الذي يقول الجميع بأنه يشبه رأسي انحنى إلى جذعي. فجأة اعتقدت أن هذا من أجل تسميم روحي، ولكنني كنت أعمل عكس هذا. فأنا أتباهى منذ سنوات بأنني أعلمه. مجرد أن يكون هذا خاطراً فهو مضحك. لقد خطر ببالي للحظة أن ذلك الرأس المتواقح في ضوء المصباح والملتحي، على

وشك أن يمتص دمي! هذا يعني أنني أحب تلك الحكايات المخيفة التي كنت أسمعها في صغري. وبينما كنتُ أفكر في هذا شعرت بأصابعه على بطني فأردت أن أهرب، وأن أضرب رأسي بمكان ما. قال: «لايوجد فيك مثلها». انتقل إلى خلفي وفحص تحت إبطيّ ورقبتي ووراء أذني: «وهنا أيضاً لايوجد. الحشرة لم تلسعك».

وضع يده على كتفي، وانتقل إلى جانبي كأنني رفيق طفولة يشكو له همه. ضغط بأصابعه على رقبتي وجذبني نحوه: «تعال لننظر معاً إلى المرآة!» نظرت إلى المرآة في ضوء المصباح الخافت فرأيت مرة أخرى تشابهنا الشديد. سيطر عليّ هذا الشعور عندما رأيته أول مرة عند باب صادق باشا. تذكرت هذا. عندئذ رأيت شخصاً ويجب علي أن أكون مثله، أما الآن فأعتقد أنه يجب أن يكون مثلي. نحن الإثنان واحد! الآن يبدو لي ذلك الأمر حقيقة واضحة. تجمدت كأن ذراعيّ مربوطتان. تحركت من أجل تخليص نفسي، كأن هذا من أجل أن أفهم من أنا، وأنني أنا. مرّرت يدي مسرعاً خلال شعري. ولكنه قام بالحركة نفسها. فوق هذا فقد قام بها بمهارة بحيث لم يخرّب التناظر المرتسِم في المرآة. كان يقلد نظراتي ووقفة رأسي. لم أحتمل النظر في المرآة، ولكن بفضول الخوف كان يكرر الخوف الذي لم تستطع عيناي منعه. بعد ذلك فرح كطفل يُغضب رفيقه مقلداً حركاته وكلماته. صرخ. سنموت معاً! فكرت قائلاً: يا لهذا الهراء. ولكنني خفت أيضاً. كانت الليلة الأكثر خوفاً من تلك الليالي التي قضيتها معه.

بعد ذلك قال بأنه منذ البداية خاف من الوباء، وكل ما فعله كان من أجل تجربتي. وهكذا كان عندما أخذني جلادو صادق باشا لقتلي، وعندما يشبّه الآخرون كلاً منا بالآخر. قال إنه سيطر على روحي تماماً كما فعل قبل قليل عندما كان يقلد حركاتي، وقال بأنه صار يعرف ما أفكر فيه، ويفكر فيما أعرف! بعد ذلك سألني عما أفكر فيه. لم يكن في ذهني أحد غيره. قلت له إنني أفكر في شيء، ولكنه لم يصغ إليّ، لأنه لم يكن يتكلم من أجل المعرفة، بل من أجل

إخافتي فقط، ولكي يلعب بمخاوفه نَقَلَ إليّ جزءاً منها. ومع تدقيقي بروئية وِحْدَتِهِ رأيت أنه يريد شراً بي. وإذ كان يمر بيده على وجهينا عاملاً على إيقاعي في الهلع تحت تأثير سحر التشابه منفعلاً جياشاً أكثر مني، فكرت أنه يريد بي شراً. إنه يضغط على رقبتي ماسكاً بي مقابل المرآة لأن قلبه لم يرض بأي شكل إيقاع شرّ بي، ولكنني أجده متأزماً وهاذياً: إنه على حق. أنا أيضاً أريد أن أفعل ما فعله، وأقول ما قاله حاسداً له لأنه لعب بالخوف في المرآة وبالوباء متصرفاً قبلي.

على الرغم من خوفي الشديد، وحدسي بما يتعلق بي لم أتخلص بأي شكل من الأشكال من الإحساس بتلك اللعبة. تراخت أصابعه القابضة على رقبتي من الخلف، ولكنني لم أنسحب من أمام المرآة. فيما بعد قال الأستاذ: «صرت مثلك. أعرف كيف تخاف. أنا صرت أنت». فهمت ما قاله ولكنني حاولت إثبات أن نبوءته تلك عبثية وطفولية رغم عدم شكي بصحة نصفها. ادّعى أنه يرى العالم كما أراه. مرة أخرى يقول: «هم». نهايةً هو الآن يعرف كيف يفكرون ويسمعون. نقل نظره خارج المرآة قليلاً، وتحدث وهو ينظر إلى المنضدة شبه المظلمة والكأسين والكرسيين وبقية الأغراض. بعد ذلك ادّعى أن باستطاعته التحدث بالأمور التي لم يستطع التحدث بها من قبل لأنه لم يرها. ولكنني أعتقد أنه مخطئ في هذا: الكلمات كانت نفسها، وكذلك الأشياء. الأمر الوحيد الجديد هو خوفه. وليس هذا تحديداً، بل هو شكل ذلك الخوف. وأنا الآن لا أستطيع الكتابة بوضوح عن شكل ذلك الخوف. أعتقد أن موقفه أمام المرآة هو شيء جديد أو لعبة جديدة. يبدو أنه يترك جزءاً من تلك اللعبة خارج إرادته، ويتعلق عقله بذلك الاندفاع الجلدي الأحمر، ويسأل عما إذا كان وباء أم لسعة حشرة.

مرة قال أنه يريد الاستمرار من حيث وصلت. كنا عاريين أمام المرآة ولم نستطع الانسحاب. وأضاف بأنه سيأخذ مكاني وأنا سآخذ مكانه، ونتبادل ثيابنا، وعندما يحلق لحيته يكفي أن أركّبها.

جعلتْ هذه الفكرة تشابهنا مخيفاً أكثر. ازداد توتر أعصابي واستمعت إليه: عندئذ سأحرره أنا. وروى مستمتعاً ما سيفعله عندما سيذهب إلى بلدي آخذاً مكاني. دهشت لرؤيته يحفظ كل ما حكيته له عن طفولتي وشبابي حتى أدق التفاصيل، وتخيله بلداً خيالياً غريباً لا واقعياً انطلاقاً من تلك التفاصيل. كأن حياتي خرجت عن سيطرتي منجرفة إلى أمكنة أخرى على يده، أو أنني لا أستطيع سوى الفرجة على ما وقع لي من بعيد كأنني أحلم. لسفره إلى بلدي، وتقمصه لشخصي، جانب مضحك وغريب وبريء يمنعني من تصديقه كاملاً. من جهة أخرى كنت أُدهش للتلاؤم مع تلك التفاصيل الحلمية: أشعر أن بالإمكان عيش حياة كهذه، وعلى هذا النحو. عندئذ فهمت أول مرة أنني أشعر بجانب أعمق يتعلق بحياة الأستاذ، ولكن لايبدو أن باستطاعتي تحديد ماهيته. نسيت الخوف من الوباء وأنا أستمع إلى ما فعلته في دنياي السابقة التي أشتاق إليها منذ سنوات.

لكن هذا لم يستمر طويلاً. طلب الأستاذ هذه المرة أن أخبره بما سأفعله عندما سآخذ مكانه. وقوفه ذلك الموقف الغريب، وهو يحاول الاقتناع بتشابهنا وبلسعة الحشرة، وتّر أعصابي بحيث لم يخطر ببالي شيء. إثر إلحاحه تذكرت خواطري التي كتبتها عن عودتي إلى بلدي فقلتها له: عندما قلت له أن بإمكاني أن أكتب ما جرى لي في قصة ضده، نظر إليّ مستصغراً قرفاً، وادّعى أنني لا أعرفه بقدر ما يعرفني. دفعني وبقي وحده أمام المرآة. قال إنه سيخبرني بما سيجري لي عندما سيأخذ مكاني. قال: أولاً،إن الاندفاع الجلدي هو خُبيرة وباء، وأنني سأموت، وشرح لي كيف سأتلوى ألماً قبيل الموت. والخوف من عدم الاستعداد، لعدم انتباهي، لهذا الأمر هو أسوأ من الموت. عندما كان الأستاذ يخبرني كيف سأصارع آلام المرض انسحب من أمام المرآة، وبعد قليل نظرت إليه فوجدته متمدداً على الفراش المبعثر على الأرض يشرح لي الآلام والأوجاع التي سأعاني منها. كانت يده على بطنه. اعتقدت أنه يعاني من ذلك الوجع الذي يشرحه. ناداني حينها فذهبت إليه خائفاً، وندمت فوراً.

مرة أخرى حاول لمسي بيده. لسبب ما أفكر بأن ذلك الشيء هو لسعة بعوضة فقط، ولكنني خائف أيضاً.

هكذا استمر الليل كله. وبينما كان يعمل على نقل مرضه وخوفه إليّ راح يكرر باستمرار أنني هو، وأنه أنا. أعتقد أنه كان يستمتع بخروجه من نفسه والفرجة عليها، وأنا كنت كمن يريد الاستيقاظ من حلم أكرر على نفسي: إنه يلعب، لأنه يذكر كلمة «لعبة» هذه، ولكنه من جهة أخرى يتصبب عرقاً ليس كمن يتخبط بخوف كلمات خانقة في غرفة حارة، بل كمريض يعاني من عاهة في جسده.

عندما أشرقت الشمس كان يتحدث عن النجوم والموت والنبوءات الملفقة، وخيل السلطان، وعن إنكاره الجميل، وعن مخبوليه الأحباء، و«عنا» و«عنهم» وعن إرادته أن يكون شخصاً آخر! لم أعد أستمع إليه، وخرجت إلى الحديقة. لسبب ما خطرت ببالي أفكار قرأتها في كتاب قديم عن الخلود. في الخارج ليس ثمة حركة غير حركة العصافير التي تغيّر أمكنتها فجأة وهي تزقزق على أشجار (الإهلامور). إنه جمود مدهش! فكرت. فكرت بغرف اسطنبول وأوبئتها الأخرى. إذا كان ذلك الذي أصاب الأستاذ وباء فإن الأمور ستستمر هكذا حتى يموت، وإن لم يكن فإنها ستستمر حتى زوال الانتفاخ الأحمر. أشعر أنني لم أعد أستطيع البقاء في ذلك البيت. عندما دخلت إلى البيت لم يكن في عقلي مكان أذهب إليه أو أختبئ فيه. أحلم بمكان بعيد عن الوباء. وعندما كنت أضع قطع ألبستي القليلة في كيس كنت أعرف أن ذلك المكان يجب أن يكون قريباً، بحيث أهرب إليه دون أن يُقبض عليّ، وهذا كل شيء.

7

جمعت بعض النقود التي سرقتها على دفعات صغيرة من الأستاذ في مختلف الأزمنة، إضافة إلى بعض النقود التي كسبتها من هنا وهناك. قبل خروجي من البيت أخرجتها من حيث خبأتها في جورب داخل صندوق أضع فيه كتبي التي لم أعد أقرؤها. بعد ذلك ذهبت بدافع الفضول إلى غرفة الأستاذ. المصباح مضاء. دهشت لصغر المرآة التي أرعبتني طوال الليل بذلك الشبه الذي لم أؤمن به تماماً في أي وقت. خرجت من البيت مستعجلاً دون لمس شيء. عندما كنت ماشياً في أزقة الحي الفارغة هبت نسمة. شعرت بحاجة لغسل يدي ولا أعرف إلى أين سأذهب. كنت مسروراً. استمتعت بالمشي صباحاً في الأزقة الفارغة، ونزول المنحدرات نحو البحر، وغسل يدي من الصنابير العامة والفرجة على الخليج.

سمعت بجزيرة (هيبلي) أول مرة من راهب شاب نزل منها إلى اسطنبول، حكى لي منفعلاً عن جمال جزيرته عندما التقيته في حي (غلاطة). لعل الأمر انحفر في عقلي لذلك كنت أعرف أنني سأذهب إلى هناك عند خروجي من الحي. طلب مني الصيادون وأصحاب الزوارق مبلغاً كبيراً من المال لأخذي إلى هناك، وهذا ما ضايقني، واعتقدت أنهم فهموا بأنني هارب، ولابد أن يخبروا الرجال الذين سيرسلهم الأستاذ خلفي عن مكاني! فيما بعد قررت أن تصرفهم هو نوع من إخافة المسيحيين المستهينين بهم لخوفهم من الوباء.

ولكي لا ألفت الأنظار كثيراً اتفقت مع صاحب الزورق الثاني الذي قابلته. لم يكن رجلاً قوياً ومقتدراً، وبدل تمسكه بالمجدافين كان يتكلم، ويذكر الذنوب التي جاء الوباء عقاباً لها، وأضاف أنه لافائدة من اللجوء إلى الجزيرة للهرب من الوباء. ومن حديثه فهمت أنه خائف بقدر ما أنا خائف. استغرق الطريق ست ساعات.

فيما بعد فكرت بأن الأيام التي قضيتها في الجزيرة كانت سعيدة. كنت أسكن في بيت صياد سمك رومي بأجرة قليلة، وأحاول ألا أظهر كثيراً، وكنتُ قلقاً. وأفكر أحياناً بأن الأستاذ قد مات، وأحياناً بالرجال الذين سيرسلهم خلفي. هنالك كثير من المسيحيين الهاربين من الوباء مثلي إلى الجزر لم أشأ أن يروني.

كنا ندخل البحر صباحاً ـ صياد السمك وأنا ـ وأعود مساء. في إحدى المرات سيطر عليّ فضول صيد سمك (الاستاكوز) و(البافوريا) بالحربة المعقوفة الرأس. عندما يكون الجو غير مناسب لصيد السمك، أسير حول الجزيرة، وأدخل أحياناً إلى كرم الدير، وأنام مستمتعاً تحت عرائش الكرمة. ثمة خيمة تستند إلى شجرة تين، وعندما يكون الجو صحواً تبدو من الخيمة (أيا صوفيا). أجلس تحتها وأنظر إلى اسطنبول وأسرح في أحلامي لساعات. مرة حلمت بأن الأستاذ يرافقني مع الدلافين وأنا قادم إلى الجزيرة بالزورق، وبأنه صديقها، ويسألها عني، وهذا يعني أنه يلاحقني. في مرة أخرى كانت الدلافين مع أمي وتؤنبني، وتسأل عن سبب تأخري. وبعد أن أستيقظ نتيجة التعرق تحت أشعة الشمس أرغب بالعودة إلى تلك الأحلام، وعندما لا أستطيع، أجبر نفسي على التفكير: أفكر أحياناً بأن الأستاذ قد مات وهذا الميت في البيت الفارغ الذي تركته، وثمة قادمون لتشييع الجنازة، وصمتُ جنازة مَنْ لا أحد له. بعد ذلك أفكر في نبوءاته، وما لفقه سعيداً من أمور مسلية، وما لفقه غاضباً وحاقداً. وأفكر بالسلطان وبحيواناته وأسماك (الاستاكوز) و(البافوريا) التي أُدخل الحربة في ظهرها

لتخرج من بطنها، وبالذين يرافقونني في أحلام يقظتي وهم يحركون فكوكهم ببطء.

كنت أحاول إقناع نفسي تدريجياً بأنني أستطيع الهرب إلى بلدي. ومن أجل هذا يكفي أن أسرق بعض الأغراض من بيوت الجزيرة المفتوحة الأبواب، ولكن عليّ أن أنسى الأستاذ أولاً. لأنني أنساق أحياناً فجأة وراء سحر ما وقع لي وجاذبية ذكرياتي. كدت أدين نفسي لتركي إنساناً يشبهني كثيراً يموت. كنتُ مشتاقاً إليه كثيراً كما الآن، وهل كان يشبه ما في ذاكرتي حقيقة، أم أنني كنت أخدع نفسي، بعد ذلك أقرر أنني لم أنظر في وجهه متملّياً على مدى الإحدى عشرة سنة، مع أنني عملت ذلك العمل كثيراً. شعرت بعض المرات أنني أريد الذهاب إلى اسطنبول، وإلقاء نظرة أخيرة على جثته. وقررت أنه لابد من اقتناعي بأن تشابهنا هو مجرد ذكرى خاطئة، أو خداع بصر يجب نسيانه والاعتياد على هذا النسيان.

حسنٌ أنني لم أعتد، لأنني في أحد الأيام رأيت الأستاذ أمامي فجأة. كنت في الحديقة الخلفية لبيت صياد السمك مغمضاً عيني، وهما باتجاه الشمس سارحاً في خيالي. شعرت بظله. كان يبتسم. ليست ابتسامة من ربح في لعبة، بل كأنها ابتسامة محب! كنت واثقاً من نفسي أكثر من المعتاد إلى درجة الخوف، ولعلني أنتظر هذا بشكل خفي لأنني أتخذتُ فوراً وضعية العبد الكسول، والخادم المطأطئ الرأس. عندما كنت أحضّر صرتي شعرت بإهانة نفسي أكثر مما شعرت بالكره نحو الأستاذ. هو الذي دفع ديني لصياد السمك. كان قد اصطحب معه رجلين وجاء بزورق ذي زوجين من المجاذيف، لهذا عدنا مسرعين. وقبل أن يُظلم الجو كنا في البيت. يبدو أنني اشتقت إلى رائحة البيت. كانت المرآة قد رفعت عن الجدار.

صباح اليوم التالي وضعني الأستاذ مقابله، وقال: ذنبي كبير جداً لا لأنني هربت فقط، وهو يتوق جداً لمعاقبتي لأنني اعتقدت أن لسعة الحشرة هي عبارة عن خُييرة وباء، وتركته على فراش

الموت، ولكن هذا ليس وقت العقاب. شرح لي: في النهاية طلب السلطانُ الأستاذ قبل أسبوع، وسأله عن موعد انتهاء الوباء، وعدد الأرواح التي سيزهقها، وما إذا كانت حياته في خطر. وقدم الأستاذ المنفعل كثيراً إجابات معماة لأنه غير جاهز، وطلب وقتاً، قائلاً بأنه سيعمل على معرفة هذا من النجوم. عاد متقافزاً من الفرح، لكنه لا يستطيع تحديد الطريقة التي يوجّه فيها فضول السلطان بالضبط، ولذلك قرر جلبي.

قال: إنه يعرف أنني في الجزيرة منذ زمن طويل، وقد أصيب ببردية بعد ذهابي، وتقفى أثري بعد ثلاثة أيام، فوجد الأثر هناك عند الصيادين، وعندما أرخى فم كيس نقوده قليلاً، قال له الصياد الثرثار بأنه أخذني إلى (هيبلي). ولم يلحق بي الأستاذ لمعرفته أنني لا أستطيع الهرب من الجُزر إلى أي مكان آخر. وعندما قال إن هذه العلاقة الجديدة مع السلطان هي أهم فرصة في حياته وافقته. قال بصراحة إنه بحاجة إلى معلوماتي.

بدأنا العمل فوراً. كان لدى الأستاذ تصميم أناس يعرفون ما يريدون، وأحببت شعور الجزم هذا الذي عنده. ولمعرفتنا بأنه سيُستدعى في اليوم التالي قررنا كسب الوقت. المبدأ الذي اتفقنا عليه هو عدم تقديم معلومات زائدة، وإثبات صحة ما نقدمه من معلومات. وقد جلب مظهر الحدة الذي أحببته لدى الأستاذ رؤيا: «النبوءة نوع من التهريج، ولكن يمكن استخدامها جيداً من أجل التأثير على المخبولين». عندما استمع الأستاذ إلى ما شرحته وافقني على أن الوباء كارثة لايمكن قهقرتها إلا بالإجراءات الصحية. كما أنه مثلي لاينكر علاقة الله بالكارثة، ولكن هذه العلاقة غير مباشرة. لهذا يمكننا التشمير عن أذرعنا وعمل بعض الأمور في مواجهة حالات الوفاة والكارثة، وهذا لايؤثر على الإرادة الإلهية. ألم يدعُ حضرة عمر أبا عبيدة من سورية إلى المدينة لحماية جيشه من الوباء؟ سيطلب الأستاذ من السلطان تخفيض مستوى علاقاته إلى الحد الأدنى لحماية نفسه، ولاننكر أنه خطر ببالينا أننا سنوقع

الذعر في نفس السلطان لإجباره على اتخاذ تلك التدابير، ولكن في هذا الأمر خطورة. ولايقف الأستاذ عند حدود إخافة السلطان بتصوير الموت له بلغة شعرية، بل خطر بباله إمكانية توسيع الخوف إلى محيطه للتغلب على مجموعة المخبولين تلك على الرغم من تأثره بثرثرتها، بعد ذلك يمكن لأولئك المخبولين الوقحين أن يتهموا الأستاذ في أية لحظة بالإلحاد. لهذا ألّفنا حكاية اعتماداً على معلوماتي الأدبية.

أكثر ما يخيف الأستاذ هو تحديد زمن انتهاء الوباء بالضبط. كنت أشعر بضرورة أن نعمل على أرقام الوفيات. عندما قلت هذا للأستاذ لم يتأثر كثيراً، لأنه لابد من مساعدة السلطان من أجل الحصول على الأرقام، ولكن لابد أيضاً من تقنيع هذا الأمر بحكاية أخرى. أنا لا أؤمن كثيراً بالحساب، ولكن أيدينا وأرجلنا مربوطة.

صباح اليوم التالي ذهب إلى القصر، وذهبت أنا إلى داخل المدينة والوباء. كنتُ خائفاً من الوباء كما في الماضي. ولكن شدة الحركة، وإرادة سيطرتي على الحياة دوّختني. كان يوماً صيفياً خفيف البرودة تهب فيه الريح. وبينما كنتُ ماراً من بين الموتى والذين يموتون فكرت أنني لم أحبّ الحياة كفاية. كنت أدخل إلى باحات الجوامع، وأدوّن على ورقة عدد التوابيت، ثم أتجوّل في الحي عاملاً على إيجاد علاقة بين ما أراه وعدد الموتى. ليس سهلاً إعطاء معنى للبيوت والناس والازدحام والمتعة والحزن والفرح. وبجوع غريب لم تتعلق عيناي سوى بالتفاصيل، وحياة الآخرين، وقرب الناس من بعضهم البعض في بيت واحد وأخوّتهم وسعادتهم وأزمتهم ولا مبالاتهم.

عند الظهر عبرت إلى الطرف الثاني للخليج ـ إلى غلاطة ـ مذهولاً بالزحام والموتى. تجولت حول مقاهي العمال في محيط رصيف بناء السفن. دخّنتُ التبغ متردداً. أكلتُ طعاماً في مطعم بدافع إرادة الفهم فقط، ودخلتُ إلى الدكاكين والأسواق. أردت نقش كل

شيء في عقلي لأصل إلى نتيجة. بُعيد ظلمة المساء عدتُ إلى البيت متعباً ومنهكاً، واستمعت للأستاذ القادم من القصر.

قال إن الأمور وضِعت في نصابها، والحكاية التي ألّفناها أثرت في السلطان. اقتنع السلطان بأن الوباء كالشيطان يتشكل بشكل الإنسان، ويعمل على الإيقاع به، وقررت عدم إدخال أي غريب إلى القصر، ووضع الدخول إلى القصر والخروج منه تحت رقابة صارمة. وجواباً على سؤال متى ينتهي الوباء وكيف، أسهب الأستاذ بالشرحِ له إلى حد أن السلطان قال متوجساً: إنه يتصور عزرائيل متجولاً وسط المدينة مثل سكران يجذب كل من يقع تحت بصره. صحح الأستاذ بسرعة قائلاً: إنه ليس عزرائيل بل الشيطان هو الذي يوقع بالناس فيذهبون إلى الموت، ثم إنه ليس سكراناً بل ماكراً جداً. وبيّن الأستاذ ـ كما خططنا ـ بأنه ثمة ضرورة لمحاربة الشيطان. ومن أجل فهم: متى سيترك المدينة لراحتها، لابد من معرفة الأمكنة التي يتجوّل فيها. وإذا وُجد في بطانة السلطان من قال إن التصدي للوباء هو تصدٍ لله، فإن السلطان لم يبال بهم. بعد ذلك سأل عن حيواناته وعما إذا كان شيطان الوباء سيطال صقوره ونسوره وأسوده وقروده، قال الأستاذ بأن الشيطان يأتي إلى الإنسان بهيئة إنسان، ويأتي إلى الحيوانات بهيئة فأر، فأمر السلطان بإحضار خمسمئة قطة من مدينة بعيدة لم يمر عليها شيطان الوباء، ووضع بأمرة الأستاذ العدد الذي يريد من الرجال.

وزعنا الإثني عشر رجلاً الموضوعين بأمرتنا في أرجاء اسطنبول الأربعة، يتجولون على الأحياء ويبلغوننا بما يرون، وبعدد الأموات. فرشنا على الطاولة خريطة لاسطنبول رسمتها تعديلاً لرسوم من كتبي الأخرى. كنا ليلاً نؤشر خائفين ومسلين أنفسنا على الخريطة إلى الأمكنة التي يتجول فيها الوباء، ونتخيّل ما يجب علينا أن نقوله للسلطان.

بدايةً لم نكن متفائلين كثيراً. الوباء لايتجول في المدينة مثل

شيطان ماكر، بل يتجوّل مثل شقي لاهدف له. في يوم يأخذ من حي أقسراي أربعين روحاً، بعد ذلك يترك المكان معرّجاً على حي الفاتح، ومن هناك ينتقل فجأة إلى الطرف الثاني من الخليج، فنجده في طوبهانة وجيهان غير، وفي اليوم الذي بعده نجده لايمر من تلك الأمكنة بل ذهب إلى زيرك ودخل إلى حينا المطل على الخليج، وقتل فيه عشرين شخصاً. لم نستنتج شيئاً من عدد الموتى، فإذا أودي في يوم واحد بحياة خمسمئة شخص، يذهب في اليوم التالي مئة. كان قد مر وقت طويل حين فهمنا أنه يجب ألا ننظر إلى حيث مات الشخص بل إلى حيث وقع في الوباء. كان السلطان مستمراً بطلب الأستاذ في تلك الفترة. فكرنا كثيراً وقررنا أن يقول الأستاذ للسلطان بأن الوباء يتجول في الأسواق المزدحمة، وحيث يخوزق الناس بعضهم البعض، وفي المقاهي التي يتبادلون فيها القيل والقال. ذهب وعند المساء عاد.

قال له هذا، فسأله السلطان: «ماذا نفعل؟»، قال له الأستاذ: يجب علينا تحديد تجوّل الناس في المدينة بقوة الهراوة. وطبعاً عارض المخبولون الملتفون حول السلطان الأمرَ قائلين: كيف ستتغذى المدينة؟ إذا توقفت التجارة فستتوقف الحياة. ارتعد الناس الذين سمعوا بأن الوباء يتجول بهيئة إنسان، وهذا ما أوجد بعض الذين آمنوا بأن القيامة ستقوم، فهاموا على وجوههم، ثم إنه لاأحد يقبل بالبقاء سجيناً في حي يتجول فيه شيطان الوباء، ومن الممكن أن ينطلق عصيان. قال الأستاذ: «إنهم على حق». عندئذ تساءل من أين يستطيع إيجاد كل هذا العدد من المخبولين الذين يضايقون الناس إلى هذا الحد؟ غضب السلطان، وخوّف الجميع بقوله إنه سيعاقب كل من يشتبه بقوته. وبينما هو في حالة الغضب تلك أمر بتنفيذ ما قاله الأستاذ، لكنه لم ينس التضامن في محيطه. ولأن كبير المنجمين صدقي أفندي يشحذ أسنانه للأستاذ، ذكّر بأن الأستاذ لم يحدد حتى الآن زمن ترك الوباء اسطنبول فقال الأستاذ ـ وهو

يخشى من موافقة السلطان لكبير المنجمين - بأنه سيجلب معه التقويم الزمني في زيارته القادمة.

ملأنا الخريطة المفتوحة على المنضدة بالأرقام والإشارات، ولكننا لم نستطع بأي شكل معرفة المنطق الذي يتبعه الوباء بالتجول في المدينة. في تلك الأثناء طبّق السلطان المنع، واستمر أكثر من ثلاثة أيام. الانكشاريون الذي يسدّون مداخل الأسواق والشوارع الرئيسة، وأرصفة المراكب يحاصرون القادمين والعابرين ويستنطقونهم قائلين: «من أنت؟ أين تذهب؟ من أين تأتي؟». أعادوا المسافرين الطائشين المتجولين على غير هدى إلى بيوتهم لكي لايخدعهم الوباء. عندما علمنا أن الحياة قد تباطأت في السوق المسقوف، وفي أون قبانٍ كنا قد دوّنا أعداد الوفيات على ورقة، وعلقناها على الجدار مفكرين فيها. حسب رأي الأستاذ كنا ننتظر حركة الوباء وفق منطق معين دون جدوى، ويجب علينا تلفيق أمر ما لإلهاء السلطان من أجل إنقاذ رأسينا.

آنئذ ظهر ما يدعى أصول ورقة الإذن. قيل أن آغا الإنكشارية يوزع على الأشخاص الذين يرى ضرورة لتجولهم أذونات، لكي لاتتوقف التجارة، وتتغذى المدينة. عندما علمنا أنه كسب من هذا الأمر نقوداً كثيرة، وأن صغار التجار الذين رفضوا الارتباط بدفع الأتاوة يحضّرون لعصيان، بدأتُ لأول مرة أشعر بمنطق في أعداد الوفيات. قلت هذا للأستاذ الذي كان يحكي لي عن اتفاق الوزير الأول كوبرولو مع صغار التجار، والأنظمة التي سيؤسسها. حاولت إقناعه بأن الوباء ينحسر تدريجياً وبطيئاً من الأحياء المتطرفة والبعيدة.

لم يقتنع كثيراً بما قلته، ولكنه ترك لي أمر تحضير التقويم. وقال إنه كتب قصة لامعنى لها أبداً، ولن يستنتج منها أحد نتيجة إذا قرأها من أجل إلهاء السلطان. سأل في زمن آخر: هل يستطيع الإنسان تأليف قصة لاتقدم نتيجة أو معنى سوى الاستمتاع بالقراءة،

وتذوقها فقط؟ قلت له فجأة: «مثل الموسيقى؟» فدهش الأستاذ. فيما بعد قال: كنا نعتقد أن القصة الجيدة يجب أن تكون بدايتها طفولية مثل الحكاية، ووسطها مخيف مثل كابوس، وتنتهي بفراق حزين كما في قصص العشق. وفي الليلة التي سبقت موعد ذهابه إلى القصر جلسنا نثرثر مستمتعين، ونعمل منهمكين. في الغرفة الأخرى كان صديقنا الخطاط الأعسر يبيّض القسم الأول من القصة التي كتبها الأستاذ، ولم يستطع إنهاءها حتى تلك اللحظة. وأنا في الصباح الباكر توصلت، من الأرقام المحدودة بين يدي، ومن العلاقات التي أحاول إيجادها منذ أيام، إلى أن الوباء قد أخذ آخر قرابينه من السوق، وهو سيترك المدينة بعد عشرين يوماً. لم يسألني الأستاذ عما استندت إليه للوصول إلى هذه النتيجة، قال إن يوم الخلاص بعيد أكثر من اللازم، وطلب مني إعادة تنظيم التقويم ليغطي أسبوعين، وأن أستتر على المدة بأرقام أخرى. لم أكن متفائلاً جداً، ولكنني عملت ما طلب مني. نَظَمَ الأستاذ بعض تواريخ التقويم شعراً، وناولها للخطاط الذي كاد ينهي عمله، كما طلب مني رسم بعض الأبيات. عند الظهر حمل الأطروحة التي جلّدها على عَجَل بجلد أزرق مزين (بالإيبرو)(*)، وعندما ذهب كان مكتئباً ومتضايقاً وخائفاً، وقال بأنه واثق من حكايته التي حشر فيها البجعات والثيران المجنحة والنمال الحمراء والقرود الناطقة أكثر من ثقته بالتقويم.

عندما عاد مساء، كان منفعلاً جداً، وقال إنه استطاع إقناع السلطان بنبوءته كاملة، واستمر ذلك الانفعال ثلاثة أسابيع. في البداية قال: «كل شيء ممكن» إلا أنه في اليوم الأول لم يأمل بشيء. وبينما كان يستمع للحكاية التي يقرؤها شاب عذب الصوت، ظهر بعض الضاحكين في حاشية السلطان، ومن الواضح أنهم عملوا هذا ضاغطين على أنفسهم للاستهانة بالأستاذ وإسقاطه بعين السلطان، ولكن السلطان لم يسكتهم ويؤنبهم، وسأل عن الظواهر التي اعتمد

(*) تقنية من تقنيات التلوين باستخدام الألوان الطافية ـ المترجم.

عليها لاستنتاج أن الوباء سينتهي بعد أسبوعين فقط. قال الأستاذ: إن كل شيء في القصة (تلك التي لم يستطع أحد فهم شيء منها). بعد ذلك، لكي يحبب السلطانَ بنفسه أبدى حباً للقطط الملونة المجلوبة بالسفن من (طرابظون) التي لايقتصر تجولها على الصالات الوسطى، بل وزعت على الغرف أيضاً.

في اليوم الثاني انقسم القصر إلى قسمين. قسم يضم صدقي أفندي كبير المنجمين يطالب بإلغاء التدابير المتخذة في المدينة كافة، والآخر يؤيد الأستاذ ويقول: «علينا ألا نعطي المدينة فرصة للتنفس لكي لايجرفها شيطان الوباء المتجوّل فيها». كنت أنظر إلى انخفاض أرقام الوفيات يومياً شاعراً بالأمل، ولكن الأستاذ مازال منفعلاً، إذ راح يشيع أن الفريق الأول اتفق مع الكوبرولو، وهو يحاول التحضير لعصيان، ومقصده ليس الحيلولة دون الوباء، بل التخلص من أعدائه.

في نهاية الأسبوع الأول كان هناك انخفاض محسوس بعدد الوفيات، ولكن بدا أن المرض لن ينتهي في نهاية الأسبوع التالي كما حسبتُ من قبل. كنت أعيد على الأستاذ كثيراً أنه غيّر التقويم الذي أعددته، ولكنه صار آملاً، وشرح أن ما يقال عن الوزير الأول لانهاية له. وبالنتيجة أشاعوا أنه متفق مع الكوبرولو. أما السلطان السئم من كل هذه الأحابيل فيبحث عن الطمأنينة فيه.

مع انتهاء الأسبوع الثاني كانت المدينة تختنق بالإجراءات الاحتياطية أكثر مما تختنق بالوباء. كل يوم يتناقص عدد الوفيات، ولكن لا أحد يعلم بهذا سوى أمثالنا الذين يتابعون الأمر. ظهرت شائعات المجاعات، وكانت اسطنبول مدينة مخيفة كأنها متروكة، وكان الأستاذ يشرح لي هذا لأنني لم أخرج خارج الحي: يشعر أن وراء تلك الشبابيك وأبواب الأحواش المغلقة يأس أناس يصارعون الوباء، وأناس ينتظرون الموت إضافة إلى الوباء. القصر أيضاً يشعر بهذا الانتظار. إذا سقط فنجان على الأرض، أو كحَّ أحدهم

مصدراً صوتاً قوياً يرتعد من الخوف جمع المخبولين المنتظرين وهم يتهامسون قائلين: أي قرار سيصدر السلطان يا ترى، ولكنهم ينفعلون بسرعة أيضاً مثل اليائسين القائلين: ليحدث شيء، وليكن ما يكون ذلك الشيء. والأستاذ أيضاً كان ينساق وراء هذا الانفعال، فحاول أن يشرح للسلطان أن الوباء ينحسر تدريجياً، وأن نبوءته قد صدقت، ولكنه لم يتأثر كثيراً. وفي النهاية اضطر للحديث عن الحيوانات.

بعد يومين تبين من إحصاء عُمل في الجوامع أن المرض قد تراجع جيداً، ولكن هذا ليس سبب فرح الأستاذ في يوم الجمعة ذاك: فقد اصطدم بعض صغار التجار الذين سيطر عليهم اليأس مع الإنكشاريين الذين يقطعون الطرقات، وهنالك مجموعة من الانكشاريين القلقين نتيجة الإجراءات المتخذة، ضَموا إلى جانبهم بعض الأئمة المخبولين من خطباء جوامع بعض الأحياء، وبعض الأشقياء المهووسين بالسلب، وبعض العاطلين، وقالوا إن الوباء من الله، ويجب ألا يجابه، ولكن الأحداث قمعت قبل أن تنفلت. عندما تم الحصول على فتوى من شيخ الإسلام قُتل عشرون شخصاً، ولعل هذا لإظهار أن الأحداث أكبر مما هي عليه.

مساء اليوم التالي أعلن انتصاره. لم يعد أحد يستطيع أن يتحدث عن رَفعْ الإجراءات. وعندما دعيّ آغا الإنكشارية ذَكر أنصار العصاة في القصر. غضب السلطان، وتفرقت تلك المجموعة التي عيّشت الأستاذ أياماً صعبة بعداوتها كما تتفرق فراخ الحجل. أما الكوبرولو الذي قيل أنه كان مع العصاة فقد قال بأنه سيتخذ إجراءات صارمة ضد العصاة. وقال الأستاذ مستمتعاً بأنه أثّر على السلطان في هذا الموضوع. ويحكي قامعو العصيان للسلطان عن تراجع الوباء لإقناعه. فوق هذا فإن هذا الكلام صحيح. وقد قال السلطان للأستاذ كلمات مديح لم يقلها من قبل، واصطحبه إلى جانب القفص الذي أمر بصنعه من أجل القرود المجلوبة من أفريقيا ليفرجه عليها. وبينما كانا يتفرجان على القرود التي قرف الأستاذ

من قذارتها وقلة أدبها، سأل السلطان عن إمكانية تعليمها الكلام مثل الببغاوات. فيما بعد التفت إلى من حوله، وقال إنه يريد رؤية الأستاذ بجواره أكثر من السابق، فقد ظهر أن التقويم الذي حققه صحيح.

بعد شهر، وفي يوم جمعة، صار الأستاذ كبير المنجمين، حتى أنه صار أكثر من هذا. بينما كان السلطان ذاهباً إلى صلاة الجمعة في أيا صوفيا بمناسبة انتهاء الوباء، كان الأستاذ خلفه بقليل، وكنت أنا وسط الزحام الصاخب بالشكر لله والسلطان. عندما عبر السلطان على جواده من أمامنا، كان كل من حولي يصرخون بكل قوتهم، بعد ذلك نسوا أنفسهم فتدافعوا. تماوج الزحام، فدَفعنا الإنكشاريون إلى الخلف. في لحظة حُصرت بين شجرة ومجموعة من المندفعين نحونا. حين دفعتُ الزحام بكوعي وقفزت إلى الأمام وجدت نفسي أمام الأستاذ الماشي وقد بدا عليه الامتنان والسرور، فهرب بعينيه عني كأنه لم يعرفني. فجأة سيطر عليّ انفعال جنوني وسط ذلك الصخب المخيف. صدقت أن الأستاذ لم يرني، فناديته صارخاً بقوتي كلها راغباً أن يعلم بوجودي، وكأنه سيسحبني من وسط الزحام، ويخرجني، ويضمني إلى المسيرة السعيدة لأولئك الذين يمسكون بأيديهم النصر والقوة. ولكنني لم أعمل هذا من أجل الحصول على حصة من النصر، أو الحصول على مقابل لما قمت به، بل كنت أشعر بشعور مختلف تماماً: يجب أن أكون هناك لأنني الأستاذ نفسه! وكما يحدث معي في الأحلام تماماً، فقد انفصلت عن نفسي ورحت أتفرج عليها لأنني أستطيع مراقبتها. هذا يعني أنني رجل آخر، وأنا لا أريد معرفة ذلك الشخص الذي تقمصت شخصيته. وبينما كنت أنظر خائفاً إلى نفسي المارة أمامي دون أن تعرفني، أردت أن أنضم إليها في أسرع وقت، ولكن جندياً مثل الحيوان دفعني إلى الخلف بقوته كلها إلى وسط الزحام.

8

في الأسابيع التي تلت الوباء لم يبق الأستاذ عند تعيينه كبير المنجمين، بل أسس قرباً من السلطان أكثر مما انتظرنا على مدى سنوات طويلة. بعد حركة ذلك العصيان الصغير الفاشل، سرّب الوزير الأول لوالدة السلطان ضرورة تخلصه من أولئك المهرجين الملتفين حول السلطان، لأن صغار التجار والانكشاريين أيضاً يعتبرون أولئك المخبولين مسؤولين عن تلك الحوادث بجذبهم السلطان إلى طريق السوء بكلامهم الفارغ. وهكذا عندما طُرد كبير المنجمين صدقي أفندي وجماعته من القصر منفيين ومكلفين بمهمات، انتقل عملهم إلى الأستاذ.

صار كل يوم يذهب إلى أحد القصور التي ينزل فيها السلطان، ويتحدث معه لأنه يخصص له وقتاً منتظماً. عندما يعود إلى البيت يحكي لي ما جرى مفعماً بشعور الانفعال والنصر. كل صباح يفسر للسلطان الحلم الذي يراه ليلاً. ولعله يحب هذا العمل أكثر من الأعمال الأخرى التي آلت إليه. صباح أحد الأيام اعترف السلطان حزيناً بأنه لم يحلم، فاقترح عليه تفسير حلم شخص آخر، ووافق السلطان على هذا الاقتراح بتوق. بحث رجال الحامية عن شخص رأى حلماً جيداً، وجلبوه إلى حضرته، وهكذا غدا تفسير حلم كل صباح عادة لايُستغنى عنها. وفي الوقت الآخر الذي يقضيه معه مرافقاً له في الصالونات وفي الحدائق التي تظللها أشجار الدلب

والأرجوان، وأحياناً عندما يتنزهان في زورق في البوسفور يتحدثان عن حيوانات السلطان المحببة، وحيواناتنا الخيالية. ولكنه يبدأ المواضيع التي يحدثني بها منفعلاً مع السلطان على نحو: ما هو سبب التيارات في البوسفور؟ ما هي القيم المكتسبة من تعلم حياة النمل المنتظمة وفهمها؟ بعد الله من أين يستمد المغناطيس قوته؟ ما هي أهمية دوران الكواكب إلى هذه الجهة أو تلك؟ هل ثمة جانب مهم في حياة الكفار غير الكفر؟ هل يمكن أن نصنع سلاحاً يجعلهم يهربون أمامنا ونلاحقهم؟ وبعد أن يقول بأن السلطان يهتم بتلك الأمور، يجلس خلف المنضدة منفعلاً، ويسوّد على ورق غالٍ وكبير مدافعَ سبطانات طويلة، آليةَ إطلاق نار تتحرك ذاتياً، وأشكالَ أسلحة تذكرنا أشكالها بأشكال حيواناته الشيطانية من أجل تصميم ذلك السلاح، ويناديني للجلوس إلى المنضدة. يريدني أن أشهد على شدة خيالاته تلك التي ستتحقق في وقت قريب جداً.

كنت أريد مشاركة الأستاذ بها. هذا ممكن بسبب أن الوباء كان يجعل عقلي يعيّشنا أيام الأخوة المخيفة تلك. لقد صلّوا جميعاً في أيا صوفيا شاكرين الله على تخلصنا من شيطان الوباء، ولكن المرض لم يترك المدينة تماماً. فعندما يخرج الأستاذ مهرولاً إلى قصر السلطان، أتجول في المدينة ممسكاً حسابات الجنازات المشيّعة من الجوامع المتصدعة مآذنها، والمساجد الذي نمت الطحالب على سقوفها القرميدية. وبوخز لم أفهم سببه أريد ألا يتركنا المرض، ولايترك المدينة.

بينما كان الأستاذ يحدثني عن كيفية تأثيره على السلطان، وعن انتصاره، كنت أشرح له أن المرض لم يترك المدينة بعد، ويمكن أن يتأجج من جديد نتيجة إلغاء الإجراءات الاحتياطية. فكان يسكتني قائلاً إنني أغار من نجاحه. كنتُ أعطيه الحق في هذا. فتسلمُه منصب كبير المنجمين، وقصُّ السلطان أحلامَه عليه كل صباح، وجعله يستمع إليه دون جمع الحمقى هو ما كنا نريده على مدى خمسة عشر عاماً. إنه نصر. ولكن لماذا يتحدث عن هذه الأمور

وكأنها نجاحاته فقط؟ يبدو أنه نسي أنني مقترح الإجراءات الاحتياطية في مواجهة الوباء، وأنني محضّر التقويم الذي لم يظهر أنه صحيح تماماً ولكنه اعتبر صحيحاً. الأمر الذي يؤلمني أكثر هو تذكيره لي كيف ذهبت إلى الجزيرة، وليس كيف جلبني منهمكاً على عجل.

لعله على حق، ولعله من الممكن تسمية شعوري غيرة، ولكن هذا شعور أخوّة لم ينتبه إليه. عندما أحكي له عن أيام ما قبل الوباء كيف كنا نجلس إلى طرفي المنضدة مثل عازبين يريدان نسيان ثقل ليالي الوحدة في أيام ما قبل الوباء، وكيف كان يسيطر علينا شعور الخوف، وعليه وحده أحياناً، وعليّ وحدي في أوقات أخرى، وكم تعلمنا من ليالي الخوف تلك، وأذكره كيف كنت أشتاق إليه حتى الموت ليلاً عندما كنت وحدي في الجزيرة، يستمع إليّ مستهيناً كأن كل ما أقوله لعبة شهد من خلالها مخاتلتي، ولايمنحني وعداً أو أملاً بالعودة إلى أيام الأخوّة تلك.

صرت أرى وأنا أتجوّل في الأحياء حياً حياً أن الوباء كان ينسحب من المدينة بطيئاً على الرغم من إزالة الإجراءات الاحتياطية، وكأنه لايريد تشويه الأمر الذي يسميه الأستاذ نصراً. أحياناً أتوق لشعوري بالوحدة لأن الخوف من ظلمة الموت ينسحب من بيننا، وكنت أريد أن نتحدث بهذا وليس بأحلام السلطان والتصميمات التي يشرحها له الأستاذ. كنتُ جاهزاً ـ ومنذ زمن ـ للوقوف معه مقابل المرآة الحاملة رعب الموت والتي أنزلها عن الجدار! ولكن الأستاذ يستهين بي منذ فترة طويلة، أو أنه يتظاهر هكذا، والأسوأ من هذا اعتقادي أنه يترفّع عن تصرف كهذا.

كنت أقول له أحياناً: يجب علينا أن نجلس إلى طرفي المنضدة. ولأكون مثالاً له جرّبت ملء الأوراق مرة أو اثنتين، وعندما حاولت أن أقرأ له ما كتبته عن الخوف من الوباء مبالغاً، وعما نمّاه ذلك الخوف من إرادة فِعل السوء، وعن مساوئي التي لم تكتمل، لم يستمع

إليّ. لعله قال هذا انطلاقاً من القوة التي استمدها من مأزقي أكثر مما استمد من نصره: إن تلك الكتابات كلها ليست أكثر من هراء، وهو منتبه إلى هذا منذ تلك الأيام، وقد انخرط في اللعبة نتيجة الملل، ولمعرفة إلى أين ستؤدي. ولكي يجربني قليلاً قال إنه عرف طينتي عندما اعتقدتُ أنه مصاب بالوباء وهربت. وقال إنني مذنب! الناس ينقسمون إلى قسمين: أصحاب الحق أمثاله، والمذنبون أمثالي.

لم أجبه على هذه الكلمات التي عملت على تفسير أنها جاءت نتيجة نشوة النصر. في الحقيقة إن ذكائي مازال متوهجاً، وعندما أرى أنني أحتد إزاء الأحداث اليومية الصغيرة أفهم أنني جاهز للغضب، ولكن لاأدري إلى أين سأدفع الأستاذ، وأين سأحرجه بردة الفعل التي ستأتي نتيجة كلماته المحفزة على الهجوم المضاد. شعرت بعدم وضوح الهدف عندما هربت منه وقضيت تلك الأيام في جزيرة هيبلي. ماذا سيحدث لو كنت قد عدت إلى البندقية؟ لقد اقتنعت ومنذ زمن بأن أمي قد ماتت خلال هذه الخمس عشرة سنة، وأن خطيبتي تزوجت وأنجبت ولا أرغب بالتفكير بهما، حتى أنهما نادراً ما تمران بأحلامي، فوق هذا لم أعد أرى نفسي بين أهلي في البندقية، بل أراهم هنا عندنا في اسطنبول. أعرف أنني لن أستطيع إكمال الحياة التي تركتها في البندقية. مهما صار لا أستطيع أكثر من البدء بحياة جديدة. لم تعد تلك الحياة وتفاصيلها تثيرني سوى من أجل كتابة كتاب أو اثنين حول الأتراك وعبوديتي كما خططت في يوم ما.

أحياناً أعتقد أن الأستاذ يستهين بي لشعوره بعدم تعلقي بوطن أو هدف، ولأنه يفهم ضعفي، وأحياناً أشك بأنه يشعر بهذا. كان منتشياً بما يحكيه للسلطان من حكايات وبما يحلم به من تفاصيل، وبخيالات ذلك السلاح الغرائبي الذي سيؤثر به على السلطان بالتأكيد، وبالنصر حتى إنه لاينتبه إلى ما أفكر فيه. كنت أقبض على نفسي فرحة وأنا أتفرج على سعادة الأستاذ النفّاج. كنت أحبه

وأحب انفعاله التمثيلي المستمد من النصر المبالغ به، ومن تصميماته اللامتناهية، ونظرته إلى كفه وهو يقول بأنه سيضع السلطان في كفه. كنت لاأستطيع الاعتراف بهذا حتى لنفسي، في الواقع كان يخيّم عليّ أحياناً شعور بأنني أراقب نفسي عندما كنت أراقب حركاته وتصرفاته اليومية. أحياناً يرى الإنسان في تصرفات طفل أو شاب طفولته أو شبابه ويتابعه بمحبة وفضول، وهكذا كان فضولي وخوفي. كثيراً ما يخطر ببالي أنه يمسكني من رقبتي من الخلف، ويقول لي: «أنا صرت أنت» ولكن عندما أذكّره بتلك الأيام يسكتني، أو يحكي لي عما قاله للسلطان في ذلك اليوم من أجل جعل ذلك السلاح الخيالي واقعاً، أو يحكي لي كيف استطاع إبهار السلطان وهو يفسر له حلمه في ذلك الصباح.

كنتُ أريد تصديق تألق نجاحاته تلك التي يتمادى في شرحها. أحياناً تسيطر عليّ لامحدودية خيالاتي، فأضع نفسي مكانه وأنا سعيد، وأؤمن بهذا أحياناً. عندئذ أحبه، وأحب نفسينا أكثر، وأغوص فيما يحكيه كأبله مفتوح الفم يستمع إلى حكاية ممتعة، وأعتقد بأنه يتحدث عن الأيام القادمة الجميلة وكأنها هدفنا معاً.

وهكذا وافقته وهو يفسّر أحلام السلطان! قرر الأستاذ دفع السلطان وهو في الحادية والعشرين من عمره ليتبنى السلطة أكثر. فراح يفسر له الخيول التي يراها السلطان في أحلامه راكضة بأنها حزينة لعدم وجود صاحب لها، والذئاب التي تغرز أنيابها في رقاب العدو سعيدة لأنها تقوم بعملها بنفسها، والنساء العجائز والفتيات الكفيفات الباكيات والأشجار المتساقطة أوراقها بسرعة تحت مطر الظلام تناديه لمساعدتها، والعنكبوت المقدس والصقور المتباهية تشير إلى فضائل الوحدة. كنا نريد أن يهتم السلطان بعلمنا، لهذا السبب فقد استفدنا حتى من الكوابيس. وكأكثر محبي الصيد يحلم السلطان بأنه المُصطاد في ليالي أسفار الصيد الطويلة المتعبة. عندما يرى أن ولده يجلس على عرشه، تحت تأثير الخوف من إضاعة العرش، يقول له الأستاذ بأنه سيبقى شاباً على عرشه، ولكن

لايمكننا التخلص من شراك أعدائنا إلا إذا صنعنا سلاحاً متفوقاً كالذي لديهم. وعندما يحلم السلطان بجده السلطان مراد وهو يضرب حماراً بسيفه فيشطره إلى نصفين لإثبات قوته العضلية، ويركض نصفا الحمار متباعدين، وأن جدته الشمطاء المدعوة السلطانة كوسم بُعثت لتخيفه، وتخنق أمه وراحت تهاجمه عارية، وأن ثمة أشجار تين نمت مكان أشجار الدلب القائمة في ساحة الخيل، وتتدلى منها أجساد مدماة مكان ثمر التين، وأن رجالاً سيئين وجوههم تشبه وجهه يطاردهم لوضعهم في أكياس يحملها ويخنقهم، وأن جيشاً من السلاحف ينزل من منطقة الأسكدار نحو البحر، ولاتنطفئ الشموع التي على ظهورها على الرغم من الريح، متوجهة نحو القصر، نفكر بخطأ الذين يعتقدون أنه لايفكر إلا بالصيد وحيواناته تاركاً أمور الدولة. وأدون تلك الأحلام صابراً مستمتعاً على دفتر، وأصنفها، ونعمل على تفسيرها لصالح العلم وذلك السلاح الخيالي الذي لابد من صنعه.

بحسب رأي الأستاذ فإننا نؤثر عليه تدريجياً، ولكنني لم أعد أصدق أننا سننجح. إثر الليالي التي تخيلنا منفعلين فيها أننا سنحصل على وعد بتأسيس رصد خانة أو بيت علم، أو صنع سلاح جديد، كانت تمر شهور دون أن يتكلم جديداً ولو مرة واحدة مع السلطان بهذه المواضيع. بعد الوباء بسنة ـ عندما مات الكوبرولو ـ وجد الأستاذ ذريعة للأمل: كان السلطان لايُقدم على تنفيذ ما في عقله لأنه يخاف من قوة الكوبرولو وشخصيته. والآن بموت الوزير الأول، وحصول ابنه غير القوي مثل أبيه على منصبه فقد جاء زَمَن توقعِ قرارات جريئة من السلطان.

قضينا السنوات الثلاث التي تلت هذا بانتظار القرارات الجريئة. ما ضيعني هو استمرار ربط الأستاذ أحلامه بالسلطان، وليس ثبات السلطان التائه بين أحلامه وصيده. وأنا على مدى تلك السنوات كلها كنت أنتظر اليوم الذي ينسى فيه آماله ويشبهني! لم يعد يذكر ما أسماه (النصرَ) كما في السابق، كما أنه لم يعد يشعر بذلك الانفعال

الذي كان يشعر به في الأشهر التالية للوباء، ولكنه مازال محتفظاً بحيوية تخيّل اليوم الذي سيقنع فيه السلطان بما أسماه التصميم الكبير. كان يجد الذريعة في كل وقت. بعد ذلك الحريق الكبير الذي كوى اسطنبول فإن إعطاء السلطان نقوداً كثيرة للأستاذ من أجل تصميمات كبيرة يفسح المجال لأعدائه الذين يريدون إجلاس أخيه على العرش؛ ولايستطيع السلطان عمل شيء الآن لأن الجيش خرج إلى القتال في المجر؛ في السنة التالية كنا ننتظر لأنهم هاجموا الألمان؛ فيما بعد كان هنالك إنشاء جامع الوالدة على شاطئ الخليج الذي صُرف على إنهائه أموال طائلة، ويتردد إليه كثيراً صاحب الجلالة السلطانية طورهان والأستاذ مع السلطان؛ ثم هناك رحلات الصيد غير المنتهية والتي لا أنضمّ إليها أنا. عندما أنتظر عودة الأستاذ من الصيد أعمل على الالتزام بما نصحني، باحثاً عن أفكار متوهجة من أجل ما أسماه «التصميم الكبير» أو «العلم» وأنا أتمدد كسولاً أقلّب الصفحات.

كانت تسلّيني حتى خيالات تلك التصميمات التي لا أعير اهتماماً للنتيجة التي ستحققها فيما لو نُفّذت. في السنوات الأولى لتعارفنا كان الأستاذ يعرف كما أعرف أنا تماماً أنه ليس ثمة جانب ملموس فيما نفكر في موضوع علوم الطبيعة أو الفلك أو الجغرافيا، وقد نُسيت الساعات والأدوات والنماذج وهي ملقاةٌ جانباً كما صدئت منذ زمن طويل. أجّلنا كل شيء إلى اليوم الذي سنطبق فيه ذلك العمل المجهول الذي أسماه «علماً» وما بين أيدينا ليس تصميماً كبيراً سيخلصنا من الانهيار بل خيال تصميم. ولكي أؤمن بذلك الخيال غير الملّون، ولأكون مع الأستاذ، أحاول النظر بعينه إلى الصفحات التي أقلّبها أحياناً، وأضع نفسي مكانه في تناول الأفكار التي تخطر ببالي عشوائياً. عند عودته من الصيد أعمل على استنتاج حقيقة جديدة من أي موضوع تركه لي لأفسّره. أعمل وكأننا نستطيع تغيير كل شيء اعتماداً على تلك الحقيقة. عندما أقول له: «يرتبط ارتفاع مياه البحر وانحسارها بحرارة مياه الأنهار التي تصب فيها» أو

«يتعلق الوباء بالوحدات الصغيرة التي يحملها الهواء، ويذهب عندما يتغيّر الهواء» أو «من الممكن أن نصنع سلاحاً ضخماً، ونطارد الجميع بسبطانته الطويلة وعجلاته» أو«الأرض تدور حول الشمس، والشمسُ حول القمر» يجيبني الأستاذ مبتسماً ابتسامته العطوفة تلك نفسها وهو يخلع ألبسة الصيد المغبّرة: «وحمقانا غير منتبهين إلى هذه الحقيقة أبداً».

بعد ذلك يسيطر عليه غضب شديد فيجرني خلفه معترفاً لي دون إرادة كيف قاد السلطان حصانه ساعات خلف خنزير تائه، ويحكي عن خواء ذرفه الدموع على أرنب جعل كلابه السلوقية تصطاده، وكيف أن كلماته التي كان يقولها للسلطان طوال مدة الصيد دخلت من أذن وخرجت من أخرى: متى سينتبه أولئك الحمقى إلى تلك الحقائق؟ هل اجتماع كل هذا العدد من المخبولين مجرّد مصادفة أم اضطرار؟ لماذا هم حمقى إلى هذا الحد؟

وهكذا يشعر ببطء تدريجي بضرورة البدء مجدداً هذه المرة من أجل فهم ما في داخل عقولهم في سبيل ما أسماه «علماً». ولأنه كان يذكرني بتلك الأيام الجميلة التي كنا نجلس فيها إلى منضدة كل منا كارهاً الآخر، اندفعت أنا أيضاً للتدخل في ذلك «العلم» ولكننا فهمنا بعد التجارب الأولى أن الأمور لم تعد كما كانت.

لم أستطع ملاحقته والضغط عليه لأنني أولاً لا أعرف لماذا سأدفعه وإلى أين. والأهم من هذا كنت أشعر به وكأن آلامه وهزائمه هي آلامي وهزائمي. في إحدى المرات راقبته بعد أن ذكرته بخبل من هنا بأمثلة مبالغ فيها على الرغم من عدم إيماني بهذا، بعد أن شعرت بأنه محكوم بالهزيمة بقدر ما هم محكومون. في الحقيقة كان يعارضني بشدة، ويقول إن الهزيمة ليست اضطراراً إذا تصرفنا قبل وقوعها، وأعطينا أنفسنا لهذه الأعمال، أي إذا حققنا تصميم ذلك السلاح فإننا نستطيع تحويل مجرى هذا النهر الذي يدفعنا إلى الخلف. وفي الحقيقة لم يتكلم عن التصميمات، بل كان يفرحني

بالحديث عن «تصميماتنا». سيطر عليه هلع هزيمة لا مفر منها تقترب منا كما كنا نعمل أيام اليأس. كنت أشبّهه بولد يتيم، وأحب غضبه وحزنه الذي يذكرني بسنوات عبوديتي الأولى، عندما كنت أريد أن أكون مثله. بينما كان يذرع الغرفة كأنه يبحث عن ظاهرة جديدة يمكنه تعليق أمل بها في الزقاق الطيني القذر تحت المطر المظلم أو على ضوء مصابيح بيت أو بيتين على شاطئ الخليج مشتعلين شاحبين مرتجفين، أفكر أن شبابي هو الذي يتجول في الغرفة متلوياً وليس الأستاذ. كأن الشخص الذي هو أنا قد تركني وذهب في يوم ما، وأنا الذي أغفو في زاوية أتوق إليه من أجل إيجاد ذلك الانفعال الذي افتقدته.

سئمت من ذلك الانفعال الذي يكرر نفسه إلى ما لانهاية. بعد أن صار كبير المنجمين توسعت أرضه التي في (غبزة) وازداد دخلنا. ليس ثمة ضرورة لقيامه بعمل ما خارج الثرثرة مع السلطان، وتضييع الوقت. أحياناً نذهب إلى (غبزة)، نتجول في الطاحونتين المتصدعتين والضياع التي تقابلنا فيها كلاب الرعاة الضخمة قبل الجميع، ندقق دخلها، ونقارن قيودها عاملين على معرفة المبلغ الذي خوزقنا به المشرف، ونتضاحك أحياناً، ونتأوه ضيقاً في أكثر الأحيان، ونكتب أطروحات مسلية، ولانعمل شيئاً آخر. لولا إصراري لما قضينا وقتاً ممتعاً ونظّمنا ذلك العالم الذي نضاجع فيه النساء ذوات الرائحة الطيّبة.

الأمر الذي وتّر أعصابه أكثر حملة ألمانيا وقلعة كريت. فبعد ترك الجيوش والباشاوات اسطنبول سائبة خشي أن يستمد السلطان جرأةً من عدم استطاعة أمه فرض الأمر عليه، ليجمع أولئك المخبولين المتلاعبين والمقلدين المهرجين حوله بعد أن طردوا من القصر. كان الأستاذ مصمماً على عدم الاختلاط بأولئك المزوِّرين الذين يقرف منهم لينأى بنفسه عنهم، ويفرض تفوقه عليهم، ولكن نتيجة إصرار السلطان اضطر للاستماع مرة أو اثنتين لما يتحدثون به ويناقشونه. كان يخرج من الاجتماعات قاطعاً أمله إذ تُسأل أسئلة

مثل: هل للحيوانات أرواح؟ أيها له روح؟ أيها ستدخل الجنة وأيها ستدخل النار؟ هل المحار مذكر أم مؤنث؟ هل الشمس المشرقة كل صباح هي شمس جديدة، أم أن الشمس بعد أن تغرب تلّف من طريق خلفي لتعود مرة أخرى؟ ويقول: إذا لم نفعل شيئاً فسيفلت السلطان من يدنا.

كنت أشاركه فرحاً لأنه يتحدث عن «تصميماتنا» و«مستقبلنا». في إحدى المرات وضعنا أمامنا الدفاتر التي أدوّن فيها منذ سنوات أحلام السلطان، ومناقشاتنا من أجل فهم ما يوجد في عقل السلطان. وكما عندما نُفرغ درج خزانة فارزين ما فيه من أدوات وأغراض، عملنا على فرز ما في عقل السلطان. لم تكن النتيجة تدعو إلى التفاؤل. مازال الأستاذ يتحدث عن ذلك السلاح الخيالي الذي سينقذنا، أو يتحدث عن الأسرار التي في عقولنا ويتوجب علينا حلّها في أقرب فرصة ممكنة، ولكنه يتصرف كأنه غير منتبه إلى أنه ثمة انهيار كبير ينتظرنا. قضينا أشهراً ونحن نتحدث في هذه المواضيع.

هل كنا نفهم من الانهيار الكبير فقدانَ الإمبراطورية للدول التي تسطير عليها واحدة تلو الأخرى؟ كنا نفتح خرائطنا على الطاولة ونحدد الدولة التي ستُفقد أولاً، بعد ذلك نحدد الجبال والأنهار التي ستُفتقد تالياً ونحن حزينان. أم أن الانهيار يعني تغيير العقائد والناس دون انتباه؟ كنا نحلم أن الاسطنبوليين سينهضون صباح أحد الأيام من فرشهم الدافئة مختلفين، لايعرفون كيف سيرتدون ألبستهم، ولايتذكرون بماذا تفيد المآذن. لعل الانهيار هو رؤية الآخرين متفوقين ومحاولة التشبّه بهم. عندئذ يأمرني بأن أحكي عن جزء من حياتي في البندقية، بعد ذلك نتخيل بعض معارفنا يرتدون بنطالات ويضعون على رؤوسهم قبعات محيين ذكرياتي.

قررنا تقديم أحلامنا التي لم نشعر بالوقت ونحن نتخيلها للسلطان باعتبارها حلاً أخيراً. كنا نقول: لعل مشاهد الانهيار في

الأحلام التي تبعث الحياة فيها الألوان تخيفه. وعلى مدى شهور قضينا الليالي المظلمة والصامتة بملء كتاب يتفجر بأحلام الهزيمة والانهيار التي تخيلناها بنشوة تمزج بين الحزن واليأس كالفقراء المطأطئي الرؤوس، والطرق الطينية، والأبنية غير المكتملة، والأزقة العجيبة المظلمة، ومرددي الأدعية التي لايفهمونها ليعود كل شيء كما كان، والأمهات الحزينات، والآباء المساكين، والحزينين الذين لايكفيهم عمرهم لنقل ما كتب في دول أخرى إلينا، والآلاتِ التي لاتعمل، والباكين النائحين على الأيام الخوالي الجميلة، والكلابِ الشاردةِ عظماً وجلداً، والفلاحين الذين لاحقول لهم، والعاطلين عن العمل المتجولين في المدن على غير هدى، والمسلمين ذوي البنطلونات ولايعرفون القراءة والكتابة، والحروب المنتهية بالهزائم. في قسم آخر من الكتاب وضعنا ذكرياتي الشاحبة: مشهد أو اثنان ملونان من الأحداث السعيدة والمعبّرة التي عشتها في سنوات الدراسة عندما كنت مع أمي وأبي وأخوتي في البندقية: هكذا يعيش الآخرون الذين سيغلبوننا. علينا أن نتصرف ونبادر قبلهم، ونعمل هكذا! أما جزء النهاية الذي بيّضه لنا خطاطنا الأعسر فهو شعر موزون يمكن اعتباره مدخلاً إلى أسرار متاهة عقولنا المتداخلة، والتي أُعجب الأستاذ كثيراً بتشبيهها بالخزانة المليئة إلى آخرها. ينتهي هذا الشعر الصامت المتباهي المنسوجة ضبابيته بدقة بالحزن مثل أفضل الكتب والأطروحات التي كتبتها مع الأستاذ.

بعد شهر من تسليم الأستاذ الكتاب للسلطان تلقى أمراً للبدء بصنع ذلك السلاح الخيالي. كنا مندهشين. لم نستطع تحديد نسبة نجاحنا التي ندين بها لذلك الكتاب.

9

من الممكن أن يكون السلطان يمتحن الأستاذ، أو يحقق حلماً يخفيه عنه، أو يثبت لأمه الضاغطة عليه وللباشاوات وللأغبياء المحيطين به ولآخرين أنه يفيد في أمر ما، أو يعتقد أن الأستاذ سيحقق معجزة أخرى بعد قضية الوباء، أو أنه تأثر فعلاً بأحلام الدمار التي ملأنا بها كتابنا، أو أنه هَلِع لاعتقاده أنهم سينزلونه عن العرش بعد عدة هزائم عسكرية، ويجلسون أخاه عندما قال للأستاذ: «اصنع ذلك السلاح الخيالي الذي سيشتت أعداءنا ولنر». كنا نفكر بكل هذا ونحن نحسب مندهشين النقود الضخمة التي تركها لنا من دخل ضياع وخانات وكروم زيتون لتطوير السلاح.

في النهاية قال الأستاذ: إن ما أدهشنا هو اللامدهش. أليست تلك الحكايات التي حكيناها للسلطان، والأطروحات التي كتبناها له صحيحة؟ وعندما يصدقها نشك في الأمر! ثمة أكثر من هذا: لقد بدأ السلطان يشعر بفضول لمعرفة ما يدور في ظلمة عقولنا. سألني الأستاذ منفعلاً: أليس هذا هو النصر الذي ننتظره منذ سنوات؟

هذا ما حدث. فوق هذا بدأنا العمل شراكة، وكنت سعيداً لأنني لا أتوق لمعرفة النتيجة كما يتوق هو. وكانت السنوات الست التالية ـ التي عملنا فيها على تطوير السلاح ـ هي أخطر سنوات حياتنا، لا لأننا نعمل بالبارود، بل لأننا جذبنا حسد أعدائنا الغيورين. كنا في

دائرة الخطر لأن الجميع قد نفد صبرهم لمعرفة نجاحنا أو فشلنا، ولأننا ننتظر الأمر خائفين.

في البداية قضينا الشتاء نعمل وراء الطاولة دون جدوى. كنا منفعلين ومهووسين بالعمل، ولكن لم يكن في عقلينا سوى فكرة السلاح، وتفاصيل غير واضحة دون شكل ونحن نتخيل كيف سنطارد أعداءنا وهم يهربون أمامنا. بعد ذلك قررنا أن نعمل بالبارود في الخارج. وكما في الأسابيع التي قضيناها بالتحضير لعرض المفرقعات، كنا ننسحب إلى ظلال الأشجار العالية المنعشة، ويشعل رجالنا ما ينفذونه من وصفات خلائط نعدها لهم. كان بعض الفضوليين يتوافدون من أرجاء اسطنبول الأربعة للفرجة على الدخان المتصاعد برفقة مختلف أنواع الانفجارات. فيما بعد تحول السهل الذي وضعنا فيه المدافع التي صببناها، والسبطانات الطويلة، والأهداف، والخيام إلى ساحة عيد بازدحام الفضوليين. في أحد أيام أواخر الصيف جاء السلطان فجأة.

قدمنا عرضاً خاصاً له. جعلنا السماء والأرض تئنان، وأريناه الكرات والحافظات المحضرة من أجل خلطات البارود المضغوط جيداً فيها، والمدافع الجديدة، ومخططات قوالب السبطانات التي لم تصبّ بعد، ومخططات آلية الرمي ذاتية الحركة. اهتم بي أكثر من اهتمامه به. أراد الأستاذ أن يبقيني بعيداً عن السلطان، ولكنه شعر بالفضول عندما بدأ العرض ورأى أنني أصدر الأوامر مثله، وأن رجالنا يسألونني بقدر ما يسألون الأستاذ.

حين مثلتُ في حضرته للمرة الثانية بعد خمسة عشر عاماً نظر إليّ السلطان وكأنه يعرفني من قبل دون أن يجزم من أكون. أي مثل من يمسك فاكهة وعيناه مغمضتان محاولاً معرفة نوعها. قبّلتُ طرف ثوبه، وغضب عندما علم أنني هنا منذ عشرين سنة ولم أُسلم. تعلق عقله بشيء آخر وهو يقول: «عشرون عاماً؟ أمر غريب!» بعدئذ سأل ذلك السؤال: «أأنت الذي تعلمه هذه الأمور؟» ولكنه لم يسأل هذا

من أجل تلقي الجواب. خرج من خيمتنا الممزقة التي تفوح منها رائحة البارود والبوتاسيوم ومشى باتجاه حصانه الأبيض الجميل. توقف فجأة، والتفت إلينا ونحن واقفان ومتجاوران، وابتسم كأنه ينظر إلى رائعة لامثيل لها خلقها الله من أجل كسر تعالي الإنسان، والتشهير بهرائه، أو إلى قزم لانقص فيه، أو توأمين متطابقين بالشبه.

ليلاً فكّرتُ فيه، ولكن ليس على طريقة الأستاذ. مازال الأستاذ يذكره كارهاً له. أما أنا فقد فهمت أنني لن أستطيع كرهه أو الاستهانة به. سعدت بتصرفه المريح كونه محبباً، وحالته الطفلية المدللة التي تجعله يقول ما يخطر بباله فوراً. أردتُ أن أكون مثله أو أن أكون صديقه. بعد ثورة غضب الأستاذ فكرتُ وأنا أحاول النوم في فراشي: السلطان رجل لايستحق أن يخدع. أردت البوح له بكل شيء. ولكن ما هو (الكل شيء) هذا؟

لم يكن اهتمامي بلا مقابل. عندما قال لي الأستاذ في أحد الأيام تلقائياً: إن السلطان ينتظر قدومي معه، ذهبت. كان يوماً خريفياً يعبق برائحة البحر والطحالب. قضينا فترة الصباح في حرش كبير مغطى بأوراق الأشجار الحمراء المتساقطة بجانب بركة مغطاة بزهر النيلوفر تحت أشجار الدلب والأرجوان. أراد السلطان أن نتحدث عن الضفادع المالئة للبركة والمتقافزة. لم يهتم الأستاذ بهذا وأطلق عبارتين مكرورتين خاليتين من الخيال واللون. ولم يهتم السلطان بذلك الدلال الذي أدهشني، وركّز اهتمامه بي.

وهكذا تحدثت مطولاً عن آلية قفز الضفادع ودورتها الدموية، وقلوبها التي تخفق مدة طويلة بعد أن تنتزع من جسمها بدقة، وعن البعوض والحشرات التي تأكلها. طلبت ورقة وقلماً لأفرّجه جيداً على المراحل التي تمر بها البيضة حتى تصير مثل الضفدع البالغ الذي في البركة. اهتم بي السلطان كثيراً وأنا أرسم بقصبة موضوعة في محبرة فضية مطعمة بالياقوت. واستمع مستمتعاً لحكايات الضفادع

المتعلقة بذاكرتي، وعندما وصلتُ إلى الأميرة التي تقبّل الضفدع، قلّص عضلات وجهه قرفاً، إنما لم يبدُ أنه ذلك الشاب المخبول الذي يتكلم بحقه الأستاذ. كان كبالغ ذكي يريد بدء يومه بالعلم والفن على الأغلب. في نهاية تلك الفترة التي قضاها الأستاذ عابساً، قال لي السلطان وهو ينظر إلى رسوم الضفادع التي بيده: «توقعت أنك مؤلف تلك القصص. هذا يعني أنك ترسمها أيضاً» بعد ذلك سألني عن الضفادع ذات الشوارب.

بدأت علاقتي بالسلطان على هذا النحو. صرت أذهب مع الأستاذ إلى القصر دائماً. في الفترة الأولى كان الأستاذ صامتاً وأنا المتكلم غالباً. وبينما كنا نتحدث - السلطان وأنا - عن أحلامه، وانفعالاته، ومخاوفه، وماضيه، ومستقبله كنت أفكر بمقدار شبه هذا الرجل المرح الذكي الذي أمامي بالسلطان الذي يحكي لي الأستاذ عنه منذ سنوات. وفهمت من أسئلته الذكية، وحركاته الدقيقة الماكرة أن السلطان يتوق لمعرفة نسبة الأستاذ ونسبتي في الأستاذ، ونسبتي ونسبة الأستاذ فيّ انطلاقاً من الكتب التي قُدمت له. وكان الأستاذ في تلك الأثناء - غير المهتم بهذا التوق لأنه يجده ساذجاً - مشغولاً بمدافعه وسبطاناته التي سيصبّها.

بعد ستة أشهر من بدئنا العمل بالمدافع غضِبَ كبير المدفعيين من حشر أنفينا في هذا العمل، وذعر الأستاذ عندما علم أن كبير المدفعيين طلب أن يعفى من هذه المهمة أو أن نطرد نحن المجنونَين اللذين خطونا نحو المدفعية بادعاء تطويرها، ولكنه لم يبحث عن حلٍّ وسط مع كبير المدفعيين الذي بدا جاهزاً للاتفاق. وفي أحد الأيام، عندما أَمَرَنا السلطان بإيجاد أدوات أخرى غير المدفعية لم يحزن الأستاذ كثيراً. صرنا نعرف أن المدافع والسبطانات التي أمرنا بصبّها لاتتفوق على القديمة المستخدمة منذ سنوات.

بهذا دخلنا مرحلة جديدة نبدأ فيها التفكير والتخيل منذ البداية

بالنسبة إلى الأستاذ. وبما أنني اعتدت على غضبه وخيالاته فإن الجديد بالنسبة إليّ هو معرفة السلطان. وكان السلطان مسروراً من معرفتنا. كان مثل أب منتبه يفصل بين أخوين يتعاركان لاختلاط كراتهما الصغيرة قائلاً: «هذه لك، وتلك لك» فهو يراقب حركاتنا، ويستمع لكلماتنا فاصلاً بيننا. كانت تثير فضولي ملاحظاته تلك التي أجدها طفلية أحياناً، وذكية أحياناً. يبدو لي أنني أتمنى أن أؤمن بأن السلطان يفصل شخصيتي عني، ويوحدها مع شخصية الأستاذ دون أن ننتبه، ويضع هذا المخلوق الخيالي في مكانه المناسب، ويعرفنا أكثر مما نعرف نفسينا.

عندما نفسّر أحلامه، أو نتحدث عن السلاح الجديد الذي كنا نعمل على خيالاته فقط كان السلطان يقف فجأة ملتفتاً إلى أحدنا قائلاً: «لا، هذه ليست فكرتك، بل فكرته» أحياناً يفصل بين حركاتنا: «إنك الآن تنظر مثله، انظر نظرتك أنت!» ويضيف وأنا أبتسم مندهشاً: «هكذا عافاك. هل نظرتما إلى المرآة معاً؟» ويسأل كم يستطيع كل منا ونحن ننظر إلى المرآة أن يصمد كائناً نفسه؟ في إحدى المرات جلب الأطروحات وكتب الحيوان والتقويمات التي حضّرناها من أجله على مدى سنوات، وبينما كان يقلّب صفحاتها راح يقرأ محدداً الكاتب والمتخيل واضعاً نفسه مكان الآخر. ولكن ما أغضب الأستاذ وما سحرني وبلبلني هو المقلّد الذي طلبه للمثول في حضرته ونحن عنده.

لم يكن ذلك الرجل يشبهنا جسداً أو وجهاً، فهو قصير وبدين، وألبسته أيضاً مختلفة، ولكنني خفت عندما بدأ الكلام: كأنه ليس هو بل الأستاذ الذي يتكلم. ينحني على أذن السلطان مثله كأنه يسره سراً، ويبطّئ كلامه بموقف المتحفز المفكر وهو يغوص في التفاصيل، وفجأة يسيطر عليه الانفعال ـ مثله تماماً ـ ويحرك يديه بحرارة زائدة لإقناع الذي أمامه مسرّعاً كلامه كثيراً. ولكنه عندما يتحدث بنبرة الأستاذ لم يتحدث حول النجوم، وحول السلاح الخيالي. كان يتحدث عن المأكولات التي عرفها من مطبخ القصر،

وأسماء لوازمها، وبهاراتها. السلطان مبتسم، والمقلد يتابع تقليده معدداً المواقع بين اسطنبول وحلب موقعاً موقعاً. بعد ذلك طلب السلطان من المقلّد أن يقلدني أيضاً. كنتُ ذلك الرجل الذي ينظر إليّ مندهشاً فاغر الفم. انخبلت. سُحرت عندما طلب منه السلطان أن يقلد شخصاً نصفه أنا ونصفه الأستاذ. بينما كنتُ أتابع حركات الرجل كدت أندفع مثل السلطان قائلاً: هذا أنا، وهذا الأستاذ، ولكن المقلد يقوم بهذا العمل مؤشراً بإصبعه إلينا. بعد أن أثنى السلطان على المقلد، وصرفه، أمرنا بالتفكير في هذا المجال.

ماذا عنى بهذا الكلام؟ مساءً شرحت للأستاذ أن السلطان أذكى من الإنسان الذي وصفه لي على مدى سنوات، وهو يأتي بنفسه إلى الطريق الذي أراد أن يجذبه إليه، فتأجج الأستاذ غضباً. هذه المرة أعطيته الحق. لم تكن مهارة المقلد محتملة. بعد ذلك قال الأستاذ إنه لن يطأ القصر إن لم يكن مضطراً. لم يعد ينوي الدخول بين أولئك المخبولين لكي لايغدو مهزلة، وعليّ أن أذهب إلى القصر مكانه لأنني أعرف ميولات السلطان، وعقلي يعمل على قدر تلك المهازل.

عندما قلت للسلطان إن الأستاذ مريض، لم يصدقني. قال: «ليعمل من أجل السلاح ولنر». وهكذا خلال السنوات الأربع التي استطاع فيها تصميم السلاح وتشغيله، كنت أذهب إلى القصر، وهو يعمل ما كنتُ أعمله من قبل، إذ يبقى في البيت مع خيالاته.

تعلمتُ في السنوات الأربع تلك أن الحياة ليست انتظاراً، بل شيئاً يُستمتع بطعمه. الذين رأوا أن السلطان يقدرني كما يقدّر الأستاذ صاروا يدعونني إلى الاحتفالات وجلسات السمر التي يقيمونها يومياً تقريباً. ففي أحد الأيام تتزوج ابنة وزير، وفي يوم آخر يولد طفل جديد للسلطان، بعد ذلك يختتن أولاده، وفي اليوم التالي تقام حفلة بمناسبة استرداد قلعة من المجر، بعد ذلك يبدأ ابن السلطان الدوام في المدرسة فيقام احتفال، وفي تلك الأثناء نجد أن احتفالات رمضان والعيد قد بدأت. ولكثرة ما حشوت معدتي باللحم المدهن

والأرز، وأكلت من تلك الحلويات المصنوعة من الفستق والسكر على شكل أسود ونعامات وحوريات بحر في تلك الاحتفالات التي تستمر أياماً، سمنت خلال فترة قصيرة. أغلب أيامنا كنا نقضيها بالفرجة على المصارعين المدهونين بالزيت وهم يتصارعون حتى يغمى عليهم، والراقصين على حبل شدّ بين مئذنتين واضعين عصا على ظهورهم، وكاسري حدوات الخيول بأسنانهم، والبهلوانات الذين يغرزون السكاكين والقضبان الحادة الرأس في أمكنة مختلفة من أجسادهم، والحواة الذين يخرجون من تحت جباتهم أفاعٍ وحماماً وقروداً، ويخفون الفناجين التي بأيدينا، والنقود التي في جيوبنا، وكذلك (قرة كوز) و(حجيوات) اللذين أستمتع كثيراً بشتائمهما. وإذا لم يكن ثمة عرض مفرقعات ليلاً، أذهب غالباً مع أصدقاء جدد بعد انصراف الجميع من القصر أو الفيلا التي كنا فيها لنقضي ساعات في شرب الخمر والعرق واستماع الموسيقا، وبعدئذ نرفع الكؤوس لنشرب مع الراقصات الجميلات المقلدات الغزلان الناعسة، والغلمان الوسيمين بأزياء النساء الماشين فوق الماء متراقصين، والمغنيات المرددات أغاني فرحة، وعميقة المعنى بأصواتهن ذات البحة.

كنت أذهب كثيراً إلى منازل السفراء أولئك الفضوليين للتعرف عليّ، وبعد أن أتفرج على باليه تتراكض فيها الفتيات المحببات، والشبان، أو بعد الاستماع إلى آخر هراءات فرقة موسيقية استُقدمت من البندقية، أستمتع بطعم شهرتي المتزايدة تدريجياً. كان الأوروبيون المجتمعون في السفارات يسألونني عن المغامرات المخيفة التي عشتها، ويدفعهم الفضول لمعرفة معاناتي، وكيفية مقاومتي، واستمراري بالمقاومة حتى تلك اللحظة. كنت أخفي عليهم أنني قضيت عمري بين أربعة جدران متأزماً، أكتب تلك الكتب التافهة، وأقصّ عليهم قصصاً لاتصدق بحكم العادة كما كنت أعمل مع السلطان حول هذه البلاد العجيبة التي يريدون معرفتها. لم تستمع الفتيات العازبات، والقادمات لزيارة آبائهم قبل زواجهن، ونساء السفراء المتنازعات عليّ لحكايات الدين والوحشية المدماة

التي ألفقها، وقصص العشق وجناح الحريم بإعجاب وحدهن، بل يستمع إليّ بالشكل نفسه أيضاً السفراء المتظاهرون بالعظمة، والكتبة. وعندما يلحّون عليّ أكثر أهمس لهم بسرعة بسرّ أو سرين من أسرار الدولة التي ألفقها في تلك اللحظة. وألصق عادات عجيبة بالسلطان لا أحد يستطيع معرفتها. وعندما يريدون الحصول على معلومات أكثر، أفرح لمنح نفسي حالة سرية، وأتصرف كأنني لن أستطيع البوح بكل شيء، وألتزم صمتاً يثير فضول أولئك المخبولين حسب تشبيه الأستاذ لنا. ولكنني أعرف أنهم يتهامسون حول تصميم سريّ ضخم، وسلاح مجهول يتطلب أموالاً طائلة.

عندما أعود مساءً إلى البيت سكراناً بخيالات الأجساد الجميلة التي رأيتها، وبخار المشروب الذي شربته خارجاً من تلك القصور أو المنازل، كنت أجد الأستاذ يعمل وراء المنضدة ذات العشرين عاماً. لقد أعطى نفسه لسرعة عمل لم أرها لديه حتى الآن. كانت أمامه على المنضدة كومة من الأوراق المليئة بأشكال عجيبة ورسوم لم أستطع فكها، وكتابات مدونة بعصبية. يطلب مني أن أحكي له عما عملته ورأيته طوال اليوم، بعد ذلك بقليل يقطع كلامي قرفاً من هذه الملاهي التي يجدها كلها وقاحة وحمقاً بادئاً بشرح تصميمه متحدثاً «عنا» و«عنهم».

مرة أخرى أيضاً يقول إن كل شيء له علاقة بما في داخل رؤوسنا، وتصميمه كله يعتمد على هذا، ويعرّج بانفعال على تناظر الخزانة المليئة بالأشياء المسماة عقلاً، أو على عشوائيتها. ولكنني لا أفهم كيف سيشكل ذلك السلاح الذي ربط به آماله وآمالنا انطلاقاً من هذا. ولا أعتقد أنه يستطيع فهم هذا كما أفكر في بعض الأحيان أو كما يفكر فيه آخرون. كان يقول لي إنه في أحد الأيام سيأتي من يفتح رؤوسنا ويؤكد صحة ما يفكر فيه، ويتحدث عن حقيقة كبرى شَعَر بها أيام الوباء عندما كنا ننظر إلى المرآة معاً، والآن توضحت الأمور كلها في عقله! بعد ذلك يشير برؤوس أصابعه المتوترة نحو

شكل عجيب غير واضح على ورقة ليريني أنا المتأثر دون فهم الكثير من كلماته الانفعالية تلك.

كان ذلك الشكل الذي أجد أنه تطور قليلاً يذكرني كلما رأيته بشيء ما. عندما أنظر إلى تلك البقعة المظلمة في الرسم التي نسميها «شيطانية» أعتقد أنني سأتذكر فوراً ما يشبه ذلك الرسم، ولكنني أسكت بحالة من التجمد أو معتقداً أن عقلي يلاعبني لعبة ما. لقد رأيت ذلك الشكل الموزعة تفاصيله بين الأوراق، والمكتسب قطعية بتطوره قليلاً في كل مرة، والمتحقق بابتلاع كل تلك النقود الموفرة على مدى كل تلك السنوات والجهود ـ رأيته ـ خلال السنوات الأربع دائماً على هذا النحو. أشبهه بشيء ذكرناه أو رأيناه في السنوات الماضية التي حكينا فيها عن ذكرياتنا مرة أو مرتين في اليقظة أحياناً وفي المنام أحياناً أخرى، ولكنه لايخطو خطوة تُكسب ما يخطر ببالي وضوحاً، وأنتظر دون جدوى أن يطأطئ رأسه لعدم وضوح أفكاري، وأن يفتح لي سر السلاح. بعد أربع سنوات عندما تحولت تلك البقعة الصغيرة إلى ذلك المخلوق، إلى ذلك المشهد المخيف، بحجم جامع ضخم تتحدث اسطنبول كلها عنه، وكانت بالنسبة للأستاذ قد تحولت إلى سلاح حقيقي، وبينما كان كل شخص يشبّهه بشيء ما، كنتُ أضيع بين التفاصيل التي شرحها الأستاذ، والنصر الذي سيحققه السلاح في المستقبل.

حين أذهب إلى القصر أعمل على تكرار تلك التفاصيل البرّاقة والمخيفة كما يحاول الإنسان تذكر حلم يصرّ وعيه على نسيانه صباحاً أمام السلطان، فأعرج على ذكر العجلات، والأحجار الدوارة، والقبة، والبارود، والرافعات التي لايعلم أحدٌ كم مرة شرحها لي الأستاذ. لم تكن الكلمات كلماتي، كما أنها لم تكن تحمل حرارة كلمات الأستاذ الحارقة، ولكنني أرى على الرغم من هذا أن السلطان قد تأثر. كنتُ أتأثر لامتلاء هذا الرجل ـ الذي أجده عاقلاً ـ بالأمل بهذا الركام من الكلمات المبهمة، ولشعور الأستاذ الانفعالي حول النصر والخلاص الذي أنقله بخطوطه العامة. كان السلطان

يقول لي: إنني ذلك الأستاذ الباقي في البيت. اعتدت على ألعاب الذكاء هذه التي تلخبط عقلي. كنت أعتقد أنه من الأفضل ألا أفهم شيئاً عندما يقول لي أنني الأستاذ، لأنه بعد ذلك بقليل يقول بأنني علّمت الأستاذ تلك الأمور كلها. يقول إنني لستُ المتكاسل الحالي، ولكن المتكاسل هو الأستاذ الذي غيّرته منذ زمن. كنت أفكر فيما لو تحدثنا عن ملاهي ذلك اليوم، والحيوانات والاحتفالات أو عن عراضة صغار التجار التي يعد لها. فيما بعد يقول السلطان بأن الجميع يعرفون أنني وراء تصميم السلاح.

وهذا أكثر ما كان يخيفني. فالأستاذ لايظهر منذ سنوات، وكادوا ينسونه. أنا من يرونه كثيراً في القصور والمنازل، وفي المدينة، وإلى جانب السلطان. صاروا يغارون مني! لم تزدد الشائعات حول تصميم السلاح المجهول يومياً لربط دخل الضياع وكروم الزيتون والخانات كلها به فقط، ولا لأنني قريب إلى هذا الحد من السلطان، ولا لأننا بهذا السلاح نحشر أنفينا بأعمال غيرنا، بل لأنهم يسنون أسنانهم لي، للكافر. وعندما لا أستطيع سدّ أذنيّ للافتراءات، كنت أحكي هذا للأستاذ وللسلطان أيضاً.

ولكنهما لايهتمان. لقد دفن الأستاذ نفسه حتى النهاية في تصميمه! كنت أتوق لغضبه كما يتوق عجوز لجموح شاب. حتى أن الأستاذ لم يُصغِ للشائعات السيئة التي نقلتها له والمنتشرة في الأشهر الأخيرة حول دفعه مبالغ لاتصدق لصبّ تلك القوالب، وصبه فولاذاً سميكاً بحيث لن تنطلق أية كرة. عندما كانت تلك البقعة الغامضة والمظلمة على الورق تتغذى بالتفاصيل متطورة، ومتحولة إلى مخططات قوالب لأعجوبة تخيفني، كان يهتم بمنازل السفراء التي يحكى هذا فيها فقط! كيف هؤلاء السفراء؟ وكيف تعمل عقولهم؟ هل يفكرون بأمر ما حول ذلك السلاح؟ والأهم من هذا: لماذا لايفكر السلطان بإرسال سفراء إلى تلك الدول يمثلون دولته بشكل مستمر؟ كنت أشعر أنه يطلب هذه المهمة ليعيش بينهم ويتخلص من الحمقى، ولكنه لم يتحدث صراحة عن إرادته تلك حتى أيام اليأس التي لاقى

فيها صعوبة بتطبيق تصميمه، وتفسخ الفولاذ الذي صبه، واعتقاده بأن النقود لن تكفي. ولكن فلت من لسانه مرة أو اثنتين أنه يريد إقامة علاقة مع رجال العلم الذين ربو(هم) لعلهم يفهمون الحقائق التي أوجدها حول ما في رؤوسنا. كان يريد مراسلة رجال العلم البندقيين والفلمنك أو أية دولة تخطر على باله في تلك اللحظة من تلك البلاد البعيدة. من هم الأفضل؟ وأين يعيشون؟ وكيف يمكن مراسلتهم؟ وهل يمكنني معرفة هذا من السفراء؟ ولكنني نسيت هذا الرجاء الحامل آثار التشاؤم الذي يبسط أعداءنا بتركي نفسي للهو، وعدم اهتمامي كثيراً بذلك السلاح الذي ينفّذ.

تجاهل السلطان أيضاً شائعات أعدائنا. في الأيام التي كان يبحث فيها السلطان عن رجال جريئين يدخلون إلى كومة الفولاذ تلك التي تخرّش رائحة الصدأ والحديد الفائحة منها البلعوم من أجل تدوير الأقراص لتجريب السلاح، اشتكيت من الشائعات للسلطان فلم يستمع إليّ. طلب مني على عادته أن أكرر ما شرحه الأستاذ. كان يثق به، وممتناً من كل شيء وغير نادم لاعتماده عليه، وشكرني على هذه الأمور. طبعاً للسبب نفسه، وهو أنني علّمت الأستاذ كل شيء. هو أيضاً يتحدث عما في داخل الرأس مع الأستاذ. وكشرط لاهتمامه هذا يتذكر بعد ذلك المشكلة الأخرى، كما كان يسألني الأستاذ في زمن ما، فقد سألني السلطان أيضاً: كيف يعيشون هناك، أي في بلدي السابق؟

كنت أروي له عدداً من الخيالات. ولا أدري الآن إن كانت تلك القصص التي صدقتُ أكثرها لتكرارها هي أمور حقيقية عشتها في شبابي، أم أنها قصص خيالية انزلقت من رأس قلمي عند جلوسي إلى الطاولة من أجل كتابة كتابي: أحياناً أرمي كذبة أو اثنتين ممتعتين تخطران ببالي في تلك الأثناء، وهنالك بعض القصص التي طورتها ملفقاً بعض الأمور. ولأن السلطان فضولي لمعرفة التفاصيل كنت أكرر دائماً أن في ألبستهم أزراراً كثيرة، كما كنت أقصّ قصصاً لا أستطيع التأكد فيما إذا كانت تفاصيلها من ذكرياتي

أم من أحلامي. إنما ثمة حقيقة أو اثنتان لم أستطع نسيانهما على مدى خمسة وعشرين عاماً: ماكنا نتحدث فيه عائلياً عندما كنا نتناول إفطارنا أمي وأبي وأخوتي وأنا تحت أشجار (الإهلامور)! وهذا أقل ما يهتم به السلطان. في إحدى المرات قال لي إن الأحلام كلها في الحقيقة متشابهة. لسبب ما خفت من عبارته تلك. كان لدى السلطان وفي وجهه تعبير شيطاني لم أره من قبل، وأردت أن أسأله عما تعنيه عبارته تلك. بعد ذلك خطر ببالي ـ وأنا أنظر إليه خائفاً ـ أن أقول: «أنا هو أنا». وكأنني فيما لو استطعت قول تلك العبارة سأُفشِل ألعاب السلطان والأستاذ وناقلي الشائعات، معدِّي الأحابيل لجعلي شخصاً آخر، وسأستمر بالعيش داخل جسدي مطمئناً، ولكنني سكتُّ مثل المتوجسين من قول أي نوع من الغموض الذي يشكل خطورة على راحتهم.

حدث هذا في الربيع عندما أنهى الأستاذ السلاح، ولكنه لم يستطع تجريبه لأنه لم يجد الرجال الذين سيجربونه. بعد فترة قصيرة، عندما خرج السلطان مع الجيش في حملة إلى ليهستان(*) دهشنا. لماذا لم يأخذ السلاح الذي سيطارد به أعداءنا؟ لماذا لم يأخذني معه؟ ألا يثق بنا؟ ونحن اعتقدنا كما اعتقد الباقون في اسطنبول أن السلطان في الحقيقة لم يخرج إلى الحرب بل خرج إلى الصيد. كان الأستاذ مسروراً لأنه كسب عاماً آخر. ولم يكن ثمة عمل أعمله أو ألهو به، لذلك عملنا معاً من أجل السلاح.

عملنا كثيراً من أجل إيجاد الرجال الذين سيستخدمون الآلة. مظهرها مخيف، فلا أحد يجرؤ على الدخول إلى داخل الآلة التي لايعرف ما هي. قال الأستاذ إنه سيدفع نقوداً كثيرة، وأخرجنا منادين في المدينة، وأرسلنا مراسلين إلى محيط ميناء بناء السفن: والمدفع خانة، وبحثنا عن رجال في مقاهي العاطلين، وبين الأشقياء والمغامرين. أكثر الذين وجدناهم كانوا لايحتملون النزول

(*) بولونيا حالياً ـ المترجم.

إلى داخل تلك الحشرة العجيبة، ليحاصَروا وسط الحرارة الشديدة وهم يدوّرون الأقراص داخل ركام الحديد ذاك فيهربون. في نهاية الصيف عندما استطعنا تشغيل الآلة كانت قد انتهت النقود التي وفرناها على مدى سنوات في سبيل هذا العمل. ووسط نظرات الفضوليين الدَّهِشة والمتوجسة، وصيحات النصر، تحرك السلاح بشكل متثاقل، وأغار على قلعة وهمية، وأطلق النار بمدافعه المهتزة، وتوقف. كانت النقود مستمرة بالتدفق من كروم الزيتون والضياع، ولكن الأستاذ صرف المجموعة التي جمعها بصعوبة بذريعة أنها مكلفة.

قضينا الشتاء منتظرين. عندما عاد السلطان من الحملة بقي في أدرنة التي يحبها كثيراً. كنا وحدنا، وليس ثمة من يسأل عنا أو يطلبنا. كنا دون عمل لعدم وجود من نذهب إلى قصره صباحاً، ونسليه بقصصنا، أو من نذهب إلى منازلهم ليلاً. أنا أعمل على تمرير أيامي بتكليف رسام بندقي برسم صورة شخصية لي، وتلقي دروساً بالعزف على العود، أما الأستاذ فقد كان يتردد إلى (تحت القلعة) لتفقد السلاح الذي وضع له حارساً. لم يتوان عن محاولة تطوير الآلة، وإضافة أمور ما إليها، ولكنه سرعان ما ملّ من هذا. في ليالي الشتاء الأخير التي قضيناها معاً لم يتحدث معي عن السلاح وعما سيفعله به. خيمت عليه حالة من الركود، ولكن ليس بسبب فقدانه التعلق بالأمر، بل لأنني لم أحفز الانفعال فيه.

قضينا معظم وقتنا في الليل منتظرين. كنا ننتظر هدوء الرياح، أو توقف ندف الثلج، ومرور بائع شراب الحبوب الساخن للمرة الأخيرة في وقت متأخر، وانطفاء آخر مصباح مرتجف النور في الطرف الآخر للخليج، ومجيء النعاس إلى أعيننا وهو لايأتي بأي شكل، وآذان الفجر. في إحدى ليالي ذلك الشتاء التي نادراً ما تحدثنا فيها، وكثيراً ما غصنا بالأحلام، قال لي الأستاذ فجأة بأنني تغيرت كثيراً، وصرتُ مختلفاً تماماً عن السابق. شعرت بحرقة في معدتي، وتصبب ظهري عرقاً، أردت أن أعارضه، وأن أقول له إنه غير محق

في هذا، وأنني كما كنت في السابق، ونحن متشابهان، وعليه أن يهتم بي كما في السابق، وهناك كثير من الأمور التي يمكن أن نتحدث بها، ولكنه محق. تعلقت عيناي برسمي الشخصي الذي جلبته إلى البيت من عند الرسام في ذلك الصباح، وأسندته إلى الجدار. تغيّرتُ. سمنتُ نتيجة ملء معدتي بالطعام في الولائم، وتهدل ما تحت ذقني، وتراخى لحمي، وتباطأت حركاتي، والأسوأ من هذا فإن حركاتي تغيرت تماماً. ونتيجة التقبيل وتعاطي المشروب في تلك الأجواء فقد وصل إلى طرفي فمي شيء من الوقاحة. عيناي ذابلتان نتيجة النعاس ومحاولات النوم أينما كنت، وقد دخلت طمأنينة كبيرة إلى نظراتي مثل أولئك المخبولين الممتنين من حياتهم، ولكنني أعرف أنني مسرور من حياتي الجديدة. سكتُّ.

حلمت الحلم نفسه كثيراً حتى علمت أن السلطان دعانا إلى أدرنة مع السلاح من أجل الخروج في حملة: نحن في حفلة تنكرية في البندقية، وهي حفلة لهو تذكرنا لخبطتها بلخبطة حفلات اللهو في اسطنبول. عندما أنزلتُ «النساءُ العاديات» أقنعتهن عرفت أمي وخطيبتي وسط الزحام، فأنزلتُ قناعي ليعرفاني، ولكنهما لم يعرفا بأي شكل أنني أنا، إنهما تشيران إلى أحدهم خلفي بقناعيهما اللذين يمسكانهما من مقبضيهما، عندما التفتُّ رأيت أنه الأستاذ الذي يعرف أنني أنا. وحين أقترب منه هذه المرة آملاً أن يتعرف علي، ينزل الأستاذ قناعه دون أن يكلمني، فيظهر من تحته شبابي، وهو يخيفني بالشعور بالذنب ليوقظني من نومي.

10

في بداية الصيف تحرك الأستاذ فور علمه أن السلطان ينتظرنا في أدرنة. عندئذ فهمتُ أنه يحافظ على كل شيء، وأنه استمر بعلاقته مع مجموعة السلاح طوال الشتاء. بعد ثلاثة أيام كنا جاهزين للنفير. قضى الأستاذ الليلة الأخيرة بتقليب الكتب القديمة الممزقة جلودها، والأطروحات غير المكتملة والمسودات المصفرة وأغراضه كما لو أنه ينتقل إلى بيت جديد. شغّل جرس ساعة الصلاة الصدئة. نفض الغبار عن أدوات الفلك. قضى وقته حتى الصباح بين الكتب التي كتبناها على مدى خمسة وعشرين عاماً، ومخططات الأدوات التي صممناها، والمسودات. عندما أشرقت الشمس رأيته يقلب الصفحات المصفرة والممزقة في الدفتر الصغير الذي دونتُ عليه ملاحظاتي حول التجارب التي نفذناها من أجل عرض المفرقعات الأول. سأل خجلاً: أيجب أن نأخذ هذه الأشياء معنا؟ هل تفيد في شيء ما؟ عندما رآني أنظر دون معنى غضب، ورمى ما بيده إلى إحدى الزوايا.

طوال فترة السفر إلى أدرنة ـ التي دامت عشرة أيام ـ كنا قريبين من بعضنا البعض وإن لم يكن بذلك القرب الذي كان قبل سنوات. كان الأستاذ متفائلاً، وسلاحنا المُصدِر لقرقعة مخيفة، والمدهش المنظر، والمتقدم ببطء، والمسمى بأسماء مثل: الأعجوبة، الحشرة، الشيطان، السلحفاة ذات السهم، الحصار المتحرك، الحديد

الأسود، الضخم، الخزان ذو العجلات، العملاق، الحلزون، الوحش، الخنزيري، (قرة أوغلان)(*)، الغراب الناظر إلى السماء، مرعباً للناظرين إليه كما يريد الأستاذ، يسير بسرعة أكثر مما هو متوقع له. استمتع الأستاذ لرؤية الفضوليين القادمين من القرى المجاورة على طول الطريق، المصطفين على التلال المجاورة للفرجة، والمنفعلين والخائفين من الاقتراب. في الليل، عندما يغط رجالنا في نوم عميق في خيامهم لتعبهم الشديد، وتصببهم عرقاً، وفي صمت لايخترقه سوى صوت الصرصار يشرح لي الأستاذ ما سيفعله الضخمُ بالأعداء. في الحقيقة لم يكن انفعاله القديم ذاك موجوداً. كان مثلي يتوق قلقاً لمعرفة ردة فعل حاشية السلطان والجيش نحو السلاح، والمكانة التي ستخصص للآلة في نظام هجوم الجيش، ولكنه مازال يتحدث براحة عن «فرصتنا الأخيرة» وإمكانية تحويلنا مجرى النهر إلى الجهة التي نريد، وعن الأهم من هذا وهو «عنهم، وعنا» إذ يحافظ على حيويتها.

دخل السلاح إلى أدرنة ولم يقابله بمظاهر الحب غير السلطان، وعدد من المرائين جداً من حوله. قابل السلطانُ الأستاذ كما يقابل صديقاً قديماً، وكان يتحدث عن احتمال نشوب حرب، ولكن لم يكن ثمة تحضير وانهماك، وبدأا يقضيان أيامهما معاً. كنتُ معهما دائماً عندما يمتطيان فرسيهما ويذهبان إلى الغابة المظلمة المجاورة للاستماع لتغريد الطيور، وعند القيام بنزهة في الزوارق عبر نهري (طونجا) و(مريتش) ومراقبة الضفادع، وللفرجة على اللقالق الجريحة بعد عراكها مع الجوارح لاجئة إلى باحة جامع السليمية والإشفاق عليها، وعندما يذهبان للنظر إلى السلاح. ولكنني أنتبه متألماً إلى أنني لن أستطيع إضافة شيء إلى ما يتكلمان به، أو الاستماع إليه باهتمام، أو أن أقول لهما قولاً صادقاً من كل قلبي.

(*) لقب بطل شعبي تركي ـ المترجم.

لعلني كنت أغار من قربهما. ولكنني أعرف أنني مللت: مازال الأستاذ يردد الشعر نفسه. صرت أندهش لانخداع السلطان بالقصة الملفقة نفسها عن النصر، وتفوق الآخرين، وضرورة نفض أنفسنا وتحركنا، والمستقبل، وما في داخل رؤوسنا.

في أحد أيام وسط الصيف التي ازدادت فيها شائعات عن قرب وقوع الحرب، أخذني الأستاذ معه، وقال إنه بحاجة إلى رجل قوي. سرنا وسط أدرنة مسرعين. عبرنا وسط بيوت المسلمين الفقراء المتشابهة بغالبيتها، وضمن أزقة بلون الرماد تجولت فيها متضايقاً من قبل، وعبرنا أحياء الغجر واليهود. وعندما وجدت أن البيوت ذات العرائش التي رأيتها على يميني قد صارت على يساري، فهمت أننا نتجوّل في الأزقة نفسها، فقلت: يبدو أننا في حي (فيل ضامِ). فجأة طرق الأستاذ باب أحد البيوت. فتح الباب ولد أخضر العينين في الثامنة من عمره تقريباً. قال الأستاذ له: «الأسود، هربت الأسود من قصر السلطان، ونحن نبحث عنها». وعندما دفع الولد، ودخل إلى البيت، دخلتُ خلفه. كانت تفوح من البيت رائحة الغبار والخشب والصابون، وهو شبه مظلم، فصعدنا إلى الأعلى إلى موزع على درج يحدث خشبه صريراً. وبدأ الأستاذ بفتح الأبواب التي يصادفها. في الغرفة الأولى رأينا رجلاً مسناً شبه نائم، وثمة ولدان اقتربا من لحيته يريدان عمل شيء ما، خافا عندما فتح الباب. أغلق الأستاذ الباب، وفتح آخر. كانت هناك كمية كبيرة من اللحف، وأقمشة اللحف. أمسك الولد الذي فتح باب الزقاق، مقبض باب الغرفة الثالثة قبل الأستاذ: «لايوجد هنا أسد. هنا أمي وأختي». ولكن الأستاذ فتح الباب، كان ثمة امرأتان تديران ظهريهما لنا وسط ضوء شاحب تصليان. في الغرفة الرابعة ثمة رجل ينجّد لحافاً، ولأنه دون لحية فقد كان يشبهني كثيراً، نهض عندما رأى الأستاذ، وقال: «لماذا أتيت أيها الرجل المجنون؟ ماذا تريد منا؟» قال الأستاذ: «أين سمرا؟» نزل الأستاذ الدرج دون أن يقول شيئاً، وخرج من البيت.

عندما كنتُ ذاهباً خلف الأستاذ سمعت الولد يصرخ، وامرأة ترد عليه: «أمي، قال إن الأسود جاءت». «لا، إنه عمك وأخوه».

بعد أسبوعين ذهبت إلى ذلك البيت في صباح يوم باكر. لعل سبب ذهابي هو عدم نسياني ما حدث بأي شكل، ولعله التحضير لكتابي هذا الذي مازلتم تقرؤونه صابرين. بداية لاقيت صعوبة بإيجاد البيت، ولعل هذا بسبب الخداع البصري الناجم عن الضوء. وعندما وجدته حاولت إيجاد الطريق الأكثر اختصاراً والمؤدي إلى دار الشفاء التابعة لجامع البيازيد. ممكن أن يكون سبب عدم إيجادي الطريق هو خطئي في توقع أنهم سيختارون الطريق الأقصر المؤدي إلى الجسر والذي تظلله أشجار الحور، أما على طرف الطريق ذي الحور فليس ثمة نهر يمكن للناس أن يجلسوا على ضفته ويأكلوا الحلاوة. وأما المشفى فليس فيه شيء مما كنت أحلم به، إذ لم يكن طينياً، ولعله نظيف جداً، وليس هناك خرير ماء، ولا زجاجات ملونة. عندما رأيت مريضاً مضروباً بالسلاسل لم أحتمل فضولي، فسألت الطبيب عنه. قال: «إنه عَشِقَ وجُن، وكأغلب المجانين يعتقد أنه شخص آخر» كان سيستمر في الشرح أكثر، ولكنني عدت دون أن أستمع.

في يوم غير متوقع من نهاية الصيف اتخذ قرار الحملة الذي بدأنا نعتقد أنه لن يصدر. إذ أنه إثر هزيمة السنة الماضية، والأهم منها عدم احتمال (الليه)(*) الضرائب، أرسلوا خبراً يقولون: «تعالوا، وحصلوا الضرائب بحد السيف». في الأيام التالية كاد الأستاذ أن يختنق من الغضب، إذ عندما كان الجيش يُجهز للمسير لم يفكر أحد بمكان للسلاح، ولا أحد كان يريد رؤية ذلك الركام الحديدي الأسود بجانبه وهو يحارب، ولا أحد يتوقع من هذا الخزان العملاق نجاحاً معيناً، والأكثر من هذا كانوا يرون فيه نحساً! وعندما كان الأستاذ

(*) البولونيون اليوم. ـ المترجم.

يقدم نصائح حول الحرب قبل انطلاق الحملة بيوم، وصل أعداؤنا بالكلام إلى القول صراحة إن هذا السلاح يمكن أن يأتينا باللعنة بقدر ما يمكن أن يجلب لنا النصر. وسيطر علي الخوف عندما قال لي الأستاذ بأنهم يعتبرونني مصدر اللعنة أكثر منه. وقال أيضاً إن السلطان يثق بالأستاذ وبالسلاح، وقال إنه سيبقى مرتبطاً به، وبقواته الخاصة مباشرة. وفي يوم حار من أيام مطلع الخريف خرجنا من أدرنة.

الجميع يعتقد أن الموسم متأخر للخروج بالحملة، ولكن لا أحد يتحدث في هذا الموضوع. أثناء النفير علمت أن الجنود في المعركة يخافون من النحس بقدر ما يخافون من الأعداء، حتى أنهم يخافون منه أكثر من الأعداء. ليلة انطلاقنا شمالاً عابرين القرى الغنية والمرتبة، ومن فوق الجسور التي يجعلها سلاحنا تئن، دهشنا عندما طلبنا السلطان إلى خيمته. كان السلطان قد تحوّل إلى طفل مثل جنوده. يحمل فضول طفل وانفعاله عندما يبدأ بلعبة جديدة. وسأل السلطان كجنوده الأستاذ عن تفسيره لما جرى طوال اليوم. بماذا تفسر غيمة حمراء أمام الشمس الغاربة، والصقور التي تطير على ارتفاع منخفض، ومدخنة بيت ريفي مكسورة، واللقالق المتجهة جنوباً؟ وطبعاً فسّر الأستاذ تلك الأشياء كلها بأنها إشارات فأل حسن.

ولكن لم ينته عملنا. علمنا أن السلطان تواق لسماع قصص مخيفة ذات حبكة معقدة في ليالي النفير. صور الأستاذ مشهداً مظلماً انطلاقاً من الشعر الانفعالي الذي يتضمنه الكتاب الأحب إليّ الذي قدمناه للسلطان قبل سنوات طويلة. كانت صورة مليئة بالقبح تعج بالموت، والهزائم الدموية، والإخفاقات، والخيانات، والبؤس، ولكن شعلة النصر تتوهج في زاوية يمكن لنظرة السلطان المتوجسة أن تراها. يجب أن نستخدم عقلنا لنؤججها، وأن ننفض نفسينا، وأن ننتبه إلى: «هم، ونحن»، وإلى ما في رؤوسنا، وبقية الأمور التي

شرحها لي الأستاذ على مدى سنوات وأريد أن أنساها! ولعل الأستاذ كل ليلة يزيد ظلمة القصة ـ التي تدفعني إلى السأم ـ وقبحها ورعبها لاعتقاده أن السلطان أيضاً سئم منها. ولكنني شعرت أن السلطان يرتعش جسده متعة عند الحديث عما في داخل رؤوسنا.

بدأت رحلات الصيد في أسبوع النفير. ثمة مجموعة قادمة مع الجيش خصيصاً لهذه المهمة. تذهب في المقدمة، بعد أن تقوم بالكشف، وتختار الأراضي المناسبة، وتحرّك القرويين. ننفصل مع السلطان أو الصيادين عن خط السير، ونذهب إلى حرش شهير بالغزلان، أو سفح جبل تتراكض فيه الخنازير البرية، أو غابة تعج بالثعالب والأرانب. بعد رحلات الصيد الصغيرة والمسلية تلك التي تدوم ساعات، يعود السلطان إلى مسار الجيش ببهجة كأنه عائد من معركة حقق فيها نصراً. وعندما يحيّي السلطانُ الجيشَ نكون خلفه. أحببتُ تلك المراسم التي يغضب منها الأستاذ ويكرهها، ومساءً كنت أستمتع بالحديث مع السلطان عنها أكثر من الحديث حول النفير أو حول أحوال القرى والقصبات التي مر منها الجيش، أو آخر الأخبار الواردة عن العدو. بعد ذلك يبدأ الأستاذ بنبوءاته وقصصه التي يزيد من حدتها كل ليلة، تحت تأثير غضبه من هذه الثرثرة التي يجدها حمقاً وخبلاً. أنا أيضاً صرت مثل أفراد حاشية السلطان أحزن لتصديقه تلك القصص التي يعمل لتكون مخيفة، والحكايات المتعلقة بما في داخل رؤوسنا.

قُدّر لي أن أشهد الأسوأ من هذا! كنا نصطاد أيضاً. أُفرغت قرابة عشر قرى، وتوزع أهاليها في الغابة حاملين الصفائح يضربون عليها ليقودوا بالضجيج الذي يصدرونه الخنازير والغزلان نحو الطرف الذي ننتظر فيه بأسلحتنا على صهوات خيولنا، ولكننا لم نصادف أي حيوان حتى الظهيرة. طلب السلطان من الأستاذ أن يقص عليه تلك القصص المخيفة التي يقصها ليلاً. ولعل السبب هو تخفيف الضيق الذي حلّ بنا تحت تأثير حرارة

الظهيرة. كنا نتقدم ببطء مستمعين إلى قرع الصفائح المتناهي إلينا من بعيد جداً، وغير واضح تماماً، وعندما وصلنا إلى قرية مسيحية توقفنا. في تلك اللحظة رأيت السلطان والأستاذ قد أشارا إلى أحد البيوت في القرية الخاوية. بعد ذلك قربوا من السلطان رجلاً مسناً يمسكونه من ذراعيه كان قد مدّ رأسه من وراء الباب. قبل قليل كان الحديث عن «أولئك» وعما في داخل رؤوسهم. عندما رأيت الفضول على وجوههم، وأن الأستاذ يسأل المسن بعض الأسئلة بوساطة مترجم، اقتربت منهم خائفاً مما خطر ببالي.

سأل الأستاذ المسنّ طالباً منه الإجابة فوراً، ودون تردد: ماهو أكبر محرّم أو أكبر ذنب ارتكبته في حياتك؟ تمتم القروي بلغة سلافية مخنوقة نقلها المترجم ببطء شديد قائلاً إنه عجوز مسكين بريء لاذنب له. ولكن الأستاذ أصرّ عليه بحدة غريبة طالباً من العجوز أن يتكلم عن نفسه. عندما رأى العجوز أن السلطان فضولي للأمر بقدر الأستاذ، اعترف بجريمته. نعم، قال إنه مذنب، وعليه أن يخرج من بيته مثل أهل القرية كلهم، وأن يشارك في الصيد مع أبناء قريته بمطاردة الحيوانات، ولكنه مريض، ولديه عذر، صحته لاتمكنه من الركض في الغابة طوال اليوم، وراح يشير بيده إلى قلبه، ويتمنى العفو. هنا صرخ الأستاذ غاضباً بأنه لايسأله عن هذا، بل يسأله عن ذنوبه الحقيقية. ولكن لايبدو على القروي أنه استطاع فهم السؤال الذي أعاده عليه المترجم. كان يضغط بيده على قلبه متجمداً. فأخذوا العجوز. وعندما قال القروي الآخر الكلام نفسه، صار وجه الأستاذ أحمر قانياً. وبينما كان الأستاذ يشرح للقروي الثاني من أجل مساعدته ذنوبي ومساوئي تلك التي ارتكبتها في طفولتي، والكذب الذي كذبته لأحبب بنفسي أكثر من أخوتي، والمحرمات الجنسية التي أقدمت عليها عندما كنت أدرس في الجامعة على أنها ذنوب ومساوئ كافر مجهول، تذكرتُ خجلاً وقرفاً أيام الوباء التي كتبتها في هذا الكتاب شغوفاً. في النهاية عندما اعترف قروي أعرج هامساً أنه كان يتفرج على النساء المغتسلات في الوادي سراً، هدأ

الأستاذ. نعم، هكذا «هم» أمام مساوئهم، يستطيعون مواجهتها، ولكننا نحن يجب أن نعرف ما يجري داخل الرؤوس... الخ. الخ... كنت أريد أن أؤمن بأن السلطان لم يتأثر كثيراً.

أثاره الفضول. بعد يومين، وأثناء صيد آخر طاردنا فيه الغزلان غض السلطان طرفه عن تكرار الحكاية نفسها، ولعله أقدم على هذا لعدم احتماله إلحاح الأستاذ، أو لأنه استمتع بعملية التحقيق أكثر مما توقعت. عبرنا هذه المرة نهر طونا، وكنا مرة أخرى في قرية مسيحية، ولكن أهلها يتكلمون بلغة لاتينية الجذر. أما الأسئلة التي سألها الأستاذ فلم يطرأ عليها تغيير. بداية، لم أرغب حتى بمجرد الاستماع لهذه الأسئلة التي تذكرني بحدته أيام الوباء التي نجحت فيها بجعله يكتب بعض مساوئه، أو الاستماع للسائل، أو إجابات القرويين الخائفين مَنْ هذا القاضي الذي لايعرفون من هو، ومَنْ السلطان الذي يدعمه صامتاً. شعرت بتقزز غريب. كان الغضب يغلي في داخلي من السلطان المخدوع به، أو اللامقاوم لجاذبية تلك اللعبة القذرة أكثر من الأستاذ. ولكنني لم أستغرق طويلاً قبل أن أنجرف مع تلك اللعبة القبيحة. فكرت بأن الأستاذ لايخسر شيئاً بالاستماع، فاقتربت منهم. أغلب الذنوب والمحرمات المرتكبة المروية بلغة وقعها أخف وأمتع، متشابهة: كذب بسيط، خداع صغير، غدر لمرة أو اثنتين، عدم وفاء، وأكبرها عدة سرقات.

مساءً قال الأستاذ بأن القرويين لم يحكوا كل شيء، وأنهم يخفون الحقيقة، وأنا قد تماديت أكثر منهم. يجب أن يكونوا قد ارتكبوا محرمات أعمق، وأكثر واقعية تميزهم عنا. وإن اضطره الأمر سيقنع السلطان باستخدام العنف معهم للحصول على تلك الحقائق لعرض من «هم» في الحقيقة، ومن «نحن» وبما نختلف فيه.

مرت الأيام التالية مع ذلك العنف القبيح المتزايد، والذي غدا عبثاً. في البداية كان كل شيء بسيطاً جداً. في تلك الأيام كنا مثل أطفال أقحمنا ممازحة أو ممازحتين فظتين وسط اللعبة. كانت

ساعات التحقيق عبارة عن تمثيلية صغيرة أقيمت وسط رحلات الصيد الطويلة والممتعة. ولكنها بعد ذلك تحولت إلى مراسم تستنفد إرادتنا، وتحمّلنا، وقوة أعصابنا، ولسبب ما لانستطيع التخلي عنها. كنت أرى قرويين مندهشين مذعورين لأسئلة الأستاذ وغضبه الذي لايعرفون سببه. لو عرفوا ما هو المطلوب منهم بالضبط لكان بالإمكان أن يحكوا. وكنت أرى أيضاً المسنين المتعبين المتساقطة أسنانهم وقد جُمعوا في ساحات القرى، وقبل أن يحكوا عن ذنوبهم أو ذنوبهم الملفقة متأتئين، ينظرون بعيون بائسة مستجدين المساعدة ممن حولهم ـ منا ـ وأرى الشبان المضروبين، والمعذبين لعدم الاكتفاء باعترافاتهم ومساوئهم، فتذكرت تميزه غضباً بعد أن يقرأ ما كتبتُه، وإنزاله لكمة على ظهري قائلاً: «آه منك آه» لأنه لم يفهم أي نوع من البشر أنا. ولكنني بتُّ أعرف أكثر من السابق ما يبحث عنه، والنتيجة التي يريد الوصول إليها، وإن لم يكن هذا واضحاً تماماً. جرّب أساليبَ أخرى: يقاطع المعترف قائلاًإنه يكذب، عندئذ يضرب رجالنا المذنبَ. وأحياناً يقاطع المعترف قائلاً إن أحد أصدقائه يكذّبه. وجرّب فترة استدعائهم مثنى. كان يغضب عندما يرى أن القرويين لايغوصون إلى الأعماق على الرغم من العنف الذي يطبقه رجالنا في الظلام، لأنهم يخجلون من بعضهم البعض.

عندما بدأت الأمطار التي لاتهدأ كنت قد اعتدت على مايجري تقريباً. أذكر أن القرويين الذين لم يعترفوا بمزيد من الأمور، ولاينوون الاعتراف، كانوا يضربون لساعات طويلة في ساحات القرى الطينية، ويُوقفون مبللين تماماً دون أي مبرر. وكانت رحلات الصيد تقلّ وتُختصر تدريجياً. أحياناً كنا نصطاد غزالاً جميلَ العينين يُحزن السلطان منظره، أو خنزيراً برياً ضخماً، ولكن لم يكن في عقولنا جميعاً تفاصيل الصيد، بل تلك التحقيقات التي بدأ التحضير لها من قبل. ليلاً كان الأستاذ يفضي ما بداخله إليّ وكأنه يشعر بالذنب لما قام به طوال اليوم. هو أيضاً كان قلقاً مما يجري، ومن العنف، ولكنه يريد إثبات معلومة وهذه المعلومة تفيدنا جميعاً.

ويريد أن يري هذا للسلطان أيضاً، ثم إن أولئك القروييين لماذا يخفون الحقائق؟ بعد ذلك قال إنه يجب أن يعيش التجربة نفسها في قرية إسلامية أيضاً، ولكنه لم ينجح في هذا. على الرغم من تحقيقه دون ضغطٍ كبير، فقد قدّم هؤلاء أيضاً ما يشبه تقديم جيرانهم المسيحيين بفارق طفيف زيادة أو نقصان، وقصوا القصص نفسها تقريباً. في أحد تلك الأيام السيئة التي لم يعرف المطر فيها سبيلاً للتوقف تمتم الأستاذ بأمور ما حول أن هؤلاء ليسوا مسلمين حقيقيين، ورأيت أن هذه الحقيقة لم تغب عن عين السلطان مساء عندما كانت أحداث اليوم تُفسّر.

لم يعد يستمتع من زيادة غضبه أكثر، ومن شهادة السلطان لما يجري، ولكنه يبدو منجرفاً وراء الفضول مثلي، ولايجد مناصاً من استخدام العنف باعتباره أملاً أخيراً. ومع استمرار مسيرنا شمالاً، وصلنا إلى منطقة حراجية يتحدث قروريوها اللغة السلافية، وفي قرية صغيرة ولطيفة رأيناه يضرب شاباً وسيماً بيده لأنه قال لاذنوب له سوى كذب الطفولة. قال إنه لن يفعل هذا مرة أخرى، وسيطر عليه مساءً شعور بالذنب رأيت أنه زاد عن حده. في أحد الأيام تهيأ لي أنني رأيتُ نساءً ورجالاً تحت مطر يميل لونه إلى الصفرة يبكون مما حلّ بهم. رجالنا الذين تمرسوا بهذا العمل أيضاً شعروا بالملل مما يجري. أحياناً يختارون معترفاً وقع تحت نظرهم قبل أن نطلبه نحن، ومترجمنا يطرح السؤال قبل الأستاذ الذي يبدو متعباً من حدته. سمعنا أن قصة عنفنا انتقلت من قرية إلى قرية متحولة إلى أسطورة، لذلك لاننكر أننا صادفنا ضحايا فيهم غرابة، معترفين يحضّرون أنفسهم سراً وكأنهم مستعدون على مدى سنوات، مذعورين مندهشين من عدالة مقدسة لايستطيعيون معرفة سرها. حكوا مطولاً عن ذنوبهم، ولكن لم تعد تهمّ الأستاذ قصص الأزواج والزوجات الذين يخونون بعضهم البعض، والفلاح الذي يغار من جاره الغني. كان يكرر دائماً أنه ثمة حقيقة أعمق، ولكنه أحياناً مثلنا يشك في أنه سيصل إليها. أو على الأقل إنه يشعر بشكنا

فيثور غضباً، ولكننا نشعر ـ السلطان ونحن ـ أنه لاينوي ترك هذا الأمر. ولعل هذا الذي أبقانا متفرجين إزاء إمساكه بخيوط الموضوع. في إحدى المرات دخل الأمل إلى نفوسنا عندما حقق مع شاب لساعات عديدة وغدا مبللاً تماماً تحت المطر بينما نحن نحمي أنفسنا تحت سقيفة، وقال إنه تصرف بسوء مع أمه، وإنه يكره زوج أمه، وأخوته من زوج أمه، ولكنه فيما بعد، مساءً، أغلق الموضوع قائلاً إنه شاب عادي يجب أن ننساه أيضاً.

صعدنا نحو الشمال أكثر. كان مسير الجيش بطيئاً جداً متعرجاً بين الجبال الشاهقة الارتفاع، وفي الطرق الطينية وسط الغابات العميقة والمظلمة. كنت أحب الجو البارد والمظلم، والصمت الضبابي المثير للشك، والغموض المتأتي من الغابات التي تغطيها أشجار الصنوبر والسنديان. كنا في سفوح جبال الكاربات التي لاأحد يستخدم اسمها هذا، وقد رأيتها في خريطة لأوروبا برسم رسام سيء، زينها بالوعول والقصور القوطية. مرض الأستاذ لإصابته ببردية تحت تأثير المطر. ولكنه كل صباح ينفصل عن طريقنا الذي يبدو أنه يتعرج وسط الغابات ليؤخرنا من الوصول إلى الهدف. كأن رحلات الصيد قد نسيت، لتغدو كأنها ليست من أجل إطلاق النار على غزال عند حافة ماء أو منحدر، بل من أجل جعل القرويين المنتظرين لنا ينتظرون مدة أطول! بعد ذلك يصدر الأمر بأن الوقت قد حان، فندخل إلى إحدى القرى، وبعد أن نعمل ما نعمله في كل مرة، نتبع الأستاذ الذي يبدو مثل من لم يجد الجوهرة التي يبحث عنها، ويريدنا أن نهرع إلى قرية أخرى من أجل أن ينسى يأسه، والذين عذبهم وضربهم. في إحدى المرات أراد أن يقوم بتجربة. جلب له السلطان ـ الذي أدهشني صبره وفضوله ـ حوالى عشرين انكشارياً، وسأل الأسئلة نفسها للانكشاريين أولاً، ثم للقرويين الشقر المنتظرين أمام بيوتهم مندهشين ثانياً. وفي مرة أخرى جلب القرويين إلى مسار الجيش، وفرجهم على آلتنا التي تصدر أصواتاً عجيبة، وهي تلاقي صعوبة في الالتحاق بجنود السلطان على الطرق

الطينية، وسألهم عما يعتقدونه حولها، وأمر الكتّاب بتدوين إجاباتهم، ولكن قواه خارت، ويمكن أن يكون سبب هذا حقيقة عدم فهمنا كما يدّعي، أو أنه يئس من العنف الفارغ، أو تحت تأثير الشعور بالذنب ليلاً، أو ملله من تأفف وزمجرة الجيش والباشاوات لموضوع السلاح ولما يجري في الغابات، أو يمكن أن يكون هذا نتيجة المرض فقط. لم يعد صوت سعاله ينطلق قوياً كما كان في الماضي. ولم يعد يسأل تلك الأسئلة التي حفظ إجاباتها منفعلاً كما كان في السابق. وبينما كان يتحدث ليلاً عن النصر والمستقبل وضرورة أن ننتفض ونخلص أنفسنا، بدا أنه لم يعد يصدق صوته المبحوح نفسه الذي يطلق هذا الكلام. أذكر أننا رأيناه آخر مرة يحقق بلا إيمان مع عدد من القرويين السلاف المندهشين تحت مطر بلون الكبريت الكالح بدأ يهطل من جديد. كنا بعيدين لعدم رغبتنا بالاستماع، وهم في ضوء خافت بتأثير المطر ينظرون بُلهاء إلى مرآة كبيرة ذات إطار مذهّب ينقلها الأستاذ من يد إلى يد.

لم نخرج إلى رحلات «الصيد» تلك مرة أخرى. عبرنا النهر ودخلنا أراضي (الليه). كان سلاحنا الذي لم يستطع التقدم بسرعة في الطرق الطينية بتأثير الأمطار المتزايدة يعيق تقدم رتل الجيش، الذي من المفروض أن يتحرك بسرعة. في هذه الفترة ازدادت شائعات الباشوات حول نحس آلتنا التي لم يحبوها أصلاً، والتي ستجلب اللعنة، كما غدت أحاديث الإنكشاريين المشاركين بتجارب الأستاذ كالملح والبهار لتلك الشائعات، وكانوا لايدينون الأستاذ بل يدينونني أنا الكافر كما في كل وقت. عندما بدأ الأستاذ ثرثرته الشعرية تلك حول السلاح وقوة العدو وضرورة انتفاضنا وتحركنا، آمن كثير من الباشاوات الموجودين في خيمة السلطان الذين استمعوا إليه بأننا محتالان، وبأن سلاحنا نحس. كانوا ينظرون إلى الأستاذ على أنه منحرف عن طريق الصواب ومريض ولكن لم يُقطع منه الأمل بعد، وأن مصدر الخطر الحقيقي، والمجرم الأساسي هو أنا الذي خدعت السلطان والأستاذ، ورتبت لذلك النحس. عندما

ننزوي في خيمتنا ليلاً كان الأستاذ يتحدث بصوته المريض عنهم، وعن السنوات الماضية، وعن المخبولين غاضباً ومشمئزاً. ولم يعد هناك أمل أو فرج أؤمن أننا استطعنا المحافظة عليه.

ولكنني أرى أنه ليس من السهل أن يترك الأمر. بعد يومين، عندما غرّز سلاحنا في طريق طيني وسط رتل الجيش فقدت أملي تماماً، ولكن الأستاذ حارب وهو مريض. ولم يقدم أحد لنا رجالاً، ولا حتى حصاناً، ولكنه صعد إلى السلطان، ووجد حوالى أربعين حصاناً، وبعد عمل يوم كامل استطاع تحريك صرصارنا العملاق، وهو يضرب الخيول بالسوط غاضباً عندما كان النهار يميل نحو المساء، تحت نظرات الداعين من أجل بقائه مغروزاً بالطين. وفي المساء حارب ضد الباشوات الذين يريدون التخلص منا قائلين إن السلاح لم يجلب النحس فقط، بل يجلب صعوبات عسكرية معه، ولكنني شعرت أنه لم يعد مؤمناً بالنصر.

كنا في خيمتنا ليلاً، أحمل بيدي العود الذي جلبته معي على عجل عندما انطلقنا في نفيرنا، وأحاول إيجاد بعض الألحان، فأخذه مني وألقاه جانباً، وقال: إنهم يريدون رأسي، وسألني عما إذا كنت أعرف هذا؟ أعرف. وادّعى أنه سيسعد لو طالبوا برأسه هو. أشعر بهذا أيضاً ولكنني لم أنبس. عندما حاولت تناول العود أمسكني، وطلب مني أن أشرح له ذلك المكان ـ بلدي ـ وغضب عندما لفقت له قصة أو اثنتين كما كنت أفعل مع السلطان. قال إنه يريد الحقيقة: سأل عن أمي وخطيبتي وأخوتي. وبينما كنت أشرح له التفاصيل «الحقيقية» تدخل مقاطعاً، وتمتم بإيطاليته التي تعلمها مني بكلمات مخنوقة، وجمل مقطعة وقصيرة.

حين رأى حصون العدو الصغيرة التي احتلتها قوات الطليعة وهدمتها وحرقتها، شعرت أنه انساق وراء بعض الأفكار العجيبة والبشعة. صباحاً كنا نسير في قرية محروقة، حين رأى الجرحى المحتضرين عند أسفل الجدار نزل عن حصانه، وهرع إلى جانبهم.

بدايةً اعتقدت أنه هرع لمساعدتهم لو كان معه ترجمان ليسأل عن معاناتهم. كنت أتفرج عليه من بعيد. بعد ذلك رأيت أن الانفعال قد سيطر عليه. أعتقدُ أنني شعرت بسبب هذا الانفعال أنه سيسألهم أسئلة مختلفة. كان منفعلاً الانفعال ذاته في اليوم التالي، عندما رافق السلطان بتفقد الحصون والحاميات الصغيرة المطهرة على يمين الطريق ويساره. وحين يرى جريحاً لم يقطع رأسه بعد بين أنقاض الأبنية الممهدة أو الجدران الخشبية المثقبة بقذائف المدفعية يهرع إليه فوراً. كنت أتبعه على الرغم من معرفتي أنهم سيتهمونني بخداعه، لكي لايقدم على عمل بشع، أو بدافع الفضول فقط. كأن الجرحى الممزقة أجسادهم بالمقذوفات وشظايا قذائف المدفعية، سيبوحون له بشيء قبيل أن يضع الموت قناعه على وجوههم. كان الأستاذ يستعد للتحقيق معهم ليعلم منهم تلك الحقيقة التي ستغيّر كل شيء فوراً، ولكنني رأيت اليأس في تلك الوجوه المتآخية مع الموت يتوحد مع يأس وجهه فيتجمدون عندما يقترب منهم.

مساء ذلك اليوم حين علم أن السلطان غاضب لعدم احتلال قلعة (دبيو) بأي طريقة، صعد إلى السلطان مسيطراً عليه الانفعال ذاته. وحين عاد كان شاكّاً في شيء ما، ولكن لايُعرف ما الذي يشك فيه. قال للسلطان بأنه يريد إدخال سلاحه في الحرب، وأنه عمل عليه على مدى هذه السنوات من أجل يوم كهذا. أمر السلطان أن ينتظر حسين باشا الأصفر المكلف بهذه المهمة قائلاً: إن الوقت فعلاً قد حان. وهذا عكس ما توقعته. لماذا قال هذا؟ سؤال من الأسئلة الموجهة لي أو له ولا أفهمها. المهم أنني لم أعد أشعر إزاءه بقرب، بل أشعر بقلق وملل. أجاب بنفسه: لأنهم يخافون من حصوله على حصة من النصر.

بذل قوته كلها ليؤمن بهذا الجواب حتى ظُهْر اليوم التالي حين علمنا أن حسين باشا الأصفر مازال يلاقي صعوبة في السيطرة على القلعة. لم أعد أذهب إلى خيمة السلطان لاتساع انتشار فكرة أنني نحس وجاسوس. عندما ذهب ليلاً لتفسير أحداث اليوم بدأ الأستاذ

بالقص عن السعادة والنصر الذي يبدو أن السلطان مؤمن به. وحين عاد إلى خيمتنا تلبّسه شعور التفاؤل الواثق أنه سيقطع دابر الشيطان. لم أستمع إليه متفرجاً على تفاؤله، بل على مابذله من مجهود للمحافظة على ذلك التفاؤل.

تحدث حول القصص القديمة تلك، وحولنا، وحولهم مرة أخرى، وحول النصر الآتي، ولكن ثمة حزن يرافقه في أثناء ذلك القص لم أشهده من قبل، كأنه يتحدث عن ذكريات طفولة عشناها معاً. لم ينبس عندما تناولت العود، ولكن عندما دندنت بشكل سيء كان يتحدث عن الأيام الجميلة التي سنعيشها ما أن نعبر مجرى النهر، ولكن كلينا كان يعرف أنه يتحدث عن الماضي. كان يتجلى أمام عيني منظر أشجار حديقة خلفية هادئة، وغرف دافئة تتلامع بالضوء، ومائدة طعام مزدحمة بالأقارب. إنها المرة الأولى التي منحتني فيها الطمأنينة، ووافقته حين قال إنه يحب الذين هنا، وإن فراقهم سيكون صعباً. وبعد أن فكر في هؤلاء الناس غَضِبَ متذكراً مخبوليه فوافقته أيضاً. كأنه ليس متلبساً التفاؤل ولعل هذا بسبب شعورنا بالحياة الجديدة القريبة جداً، أو بسبب تفكيري أنني سأقوم بالأعمال نفسها لو كنت مكانه. لا أدري.

صباح اليوم التالي، عندما أخذنا سلاحنا لنجربه في حصن صغير للعدو يقع على طريقنا، كنا نعرف كلانا ـ وبشعور غريب ـ أن السلاح لن يحقق شيئاً. تفرق الرجال المئة الذين قدمهم لنا السلطان للدعم في أول هجوم للسلاح. بعضهم سحقوا بالسلاح ذاته، وبعضهم أصيبوا بالنار عندما أصبحوا خارج حماية السلاح المغروز بالطين، إثر عدة طلقات لم تحقق أهدافها. كان علينا إعادة جميع الهاربين والمنسحبين ـ وهم أكثرية ـ خشية النحس. لابد أننا معاً كنا نفكر بالأمر نفسه.

فيما بعد، حين سيطر رجال حسن باشا البدين على الحصن في ظرف ساعة من الزمن دون بذل مزيد من الضحايا، أراد الأستاذ

إثبات تلك المعلومة العميقة مجدداً، وبأمل أعتقد أنني صرت أفهمه جيداً، ولكن سكان الحصن ذبحوا بالسيف كلهم، وليس ثمة محتضر بين الجدران المهدمة. فهمت فوراً ما يفكر فيه عندما رأى كومة الرؤوس المجموعة جانباً لتقديمها للسلطان، أو أنني أعطيته الحق لفضوله، ولكنني لم أعد أريد أن أشهد كل هذا. أدرت ظهري له. بعد قليل، عندما التفتُ مهزوماً أمام فضولي، كان يبتعد عن الرؤوس، ولم أعلم إلى أي مدى تمادى.

حين عدنا إلى رتل المسير ظهراً، قالوا إن قلعة (دبيو) لم تسقط حتى الآن. كان السلطان غاضباً، ويقول إنه سيعاقب حسين باشا الأصفر. سنذهب مع الجيش كله! قال السلطان للأستاذ إن آلتنا أيضاً ستشارك في الهجوم الصباحي إذا لم تسقط القلعة حتى المساء. في تلك الأثناء ضرب رأس أحد القادة الفاشلين لأنه لم يستطع السيطرة على حصن صغير طوال اليوم. عندما التحقت آلتنا برتل الجيش لم يبال بفشلها أمام الحصن الصغير، أو بشائعات نحسها. لم يعد الأستاذ يذكر نصيبه من النصر، ولايقول هذا، ولكنني أعرف ما يفكر فيه: نهاية كبير المنجمين السابقين. ما أن أحلم بطفولتي، وبالحيوانات التي في مزرعتنا حتى أدرك أن الأمور نفسها تخطر بباله، وأعرف أيضاً أنه يعتبر خبر النصر الذي سيأتي من القلعة هو آخر فرصة لنا، ولكنه لم يؤمن بهذه الفرصة، ولايريدها، والدعاء الذي يتمتم به خوري جريء بجانب كنيسة صغيرة محترقة مع برج ناقوسها، وسط قرية مهدومة ومحروقة غضباً من عدم سقوط القلعة يذكر بحياة جديدة، والشمس الغاربة خلف التلال الحراجية عن يسارنا، ونحن نتجه شمالاً تثير شعوراً بأن كل شيء في ذروة كماله بصمت وحذر.

بعد أن غربت الشمس، وعلمنا أن أمر قلعة دبيو لايتعلق بفشل حسين باشا الأصفر فقط، بل بمساعدة النمساويين والمجريين والقظاقيين لليه، رأينا القلعة ذاتها. كانت فوق تلة مرتفعة، ضربت أشعة الشمس الغاربة على أبراجها شفقاً أحمر، ولكنها بيضاء

وجميلة. فكرت أنه لايمكن للإنسان أن يرى شيئاً بهذا الجمال والسمو إلا في أحلامه. وفي ذلك الحلم يركضون منهمكين في طريق يتلوى وسط غابة مظلمة للوصول إلى ذلك الضوء ـ البناء الأبيض ـ كأن ثمة حفلة يريدون المشاركة بها، وسعادة لايريدون تفويتها. ولكن الطريق الذي يعتقدون أنه سينتهي في كل لحظة، لاينتهي أبداً. حين علمت أن ثمة مستنقعاً أحدثه النهر بفيضاناته المتكررة مابين الغابة المظلمة وسفوح الهضبة، ولم يستطع المشاة الذين قطعوا النهر بدعم المدفعية صعود السفوح بأي شكل، كنت أفكر بالطريق الذي أوصلنا إلى هنا. كأن كل شيء كامل لا عيب فيه مثل منظر القلعة البيضاء التي تتطاير فوقها الطيور، والسفح المظلم تدريجياً، والغابة المظلمة. أدرك الآن أن كثيراً مما عشته مصادفة هو في الحقيقة اضطرار، وأعرف كما يعرف الأستاذ أن جنودنا لن يصلوا إلى الأبراج البيضاء للقلعة في أي وقت. عندما بدأنا الهجوم صباحاً كنت أعرف جيداً أن الأستاذ يرى كما أرى أن آلتنا ستغوص في المستنقع، مميتة رجالنا الذين في داخلها وعلى أطرافها، وأنهم سيطالبون بضرب رأسي لتهدئة الجنود والخوف وشائعات النحس. تذكرت أنني تحدثت معه مرة قبل سنوات طويلة عن صديق طفولة لي، طورت معه أسلوب التفكير بالأشياء ذاتها في اللحظة ذاتها من أجل استفزازه للشرح عن نفسه. لا أشك أنه يفكر بالأشياء نفسها.

عندما ذهب ليلاً إلى خيمة السلطان طال غيابه، ولأنني أتوقع جيداً ماسيقوله للسلطان حين يطلب منه تفسير الحاضر والمستقبل للباشاوات الذين في الخيمة، خطر ببالي لحظتها أنه قُتل هناك فوراً، وأن الجلادين سيأتون إليّ بعد قليل. فيما بعد حلمتُ أنه خرج من الخيمة دون إعلامي، وذهب مباشرة عبر الظلام إلى القلعة التي تتلامع جدرانها البيضاء، وقد تجاوز الحراس، وعَبَر المستنقع والغابة ووصل إلى هناك منذ زمن طويل. وبينما كنت أفكر بحياتي الجديدة دون شعور كبير بالانفعال منتظراً الصباح، وإذ به قد أتى. استطعت معرفة أنه قال لمن في الخيمة ما توقعته. عرفت هذا بعد

سنوات وبعد أحاديث دقيقة ومطولة. لم يحك لي شيئاً. كان مسرعاً كمنهمك قبيل انطلاقه في سفر. قال بأنه ثمة ضباب كثيف في الخارج، وفهمت.

حكيت له حتى بزوغ ضوء النهار عما تركته في بلدي، وكيف يمكنه إيجاد بيتي وكيف نُعرف في نابولي وفلورانسا، وعن أبي وأمي وأخوتي وعاداتهم، وذكرت له بعض التفاصيل الخاصة التي تميز بين الناس. ومع شرحي له كل هذا وصولاً إلى الشامة في ظهر أخي الصغير تذكرت أنني شرحت له هذا من قبل. ولكنني في تلك الأثناء كنت مؤمناً أنني عندما قصصت هذا على السلطان، أو الآن وأنا أكتب هذا الكتاب لا أقدّم صورة الواقع، بل انعكاس خيالاتي فقط. صحيح أن أختي كانت تتأتئ بشكل خفيف، وأن ألبستنا ذات أزرار كثيرة، وما رأيته من بيتنا في الحديقة الخلفية، ولكنني خُدعت باعتقادي أن تلك الحكايات ستستمر من حيث توقفت عند الصباح. وأعرف أيضاً أن الأستاذ يفكر بالأمور ذاتها وأنه مؤمن بحكايته فرحاً.

تبادلنا ألبستنا دون عجلة أو كلام. أعطيته خاتمي وميداليتي التي استطعت إخفاءها عنه طوال هذه السنوات. كان في داخلها شعر جدتي لأمي وخطيبتي وقد ابيضّ تلقائياً. أعتقد أنه أحبها وعلقها برقبته. بعد ذلك خرج من الخيمة وذهب. تفرجت على ضياعه البطيء وسط الضباب الصامت. بدأ النور يضيء المكان. كنت ناعساً جداً، فتمددت في فراشه ونمت مطمئناً.

11

وصلت إلى نهاية كتابي. لعل قرائي الأذكياء قرروا أن الحكاية في الحقيقة قد انتهت منذ مدة، ورموا الكتاب جانباً. في زمن ما كنت أفكر بالأمر نفسه. دسست هذه الصفحات التي كتبتها قبل سنوات في زاوية لكي لاأقرأها مرة أخرى. في زمن ما كنت أنوي ألا أكتب للسلطان، بل أن أكتب واهباً نفسي للقصص الأخرى التي لفقتها مستمتعاً، بل أن أتحول إلى دودة وأدخل فيها، ولقصص العشق التي تدور في بلدان لم أرها نهائياً، وصحارى قفراء، وغابات جليدية، وأريد نسيان هذه القصة وهذا الكتاب. لعلني كنت سأنجح في هذا العمل الذي أعرف أنه لن يكون سهلاً بعد كل تلك الشائعات التي سمعتها، وكل ما عشته، ولكن عندما خُدعت بكلمات ضيف زارني قبل شهرين، أخرجت كتابي مجدداً. اليوم أعرف أن هذا هو الكتاب الأحب إليّ، وسأنهيه كما يجب، وكما أريد، وكما أحلم.

كنت أرى من وراء منضدتنا القديمة التي أجلس إليها لإنهاء كتابي مركباً شراعياً صغيراً أبحر من (جنة حصار) إلى اسطنبول، وطاحونة وسط كروم الزيتون، وأطفالاً يتدافعون متلاعبين في الطرف المنخفض من الحديقة بين أشجار التين، والطريق المغبر بين اسطنبول وغبزة. يكاد لايكون ثمة مارّة في الشتاء والثلج، وكنت أرى في فصول الربيع والصيف القوافل تتجه شرقاً إلى الأناضول، وإلى بغداد والشام أيضاً. وأكثر ما يعبر الطريق عربات مهلهلة

تتقدم ببطء شديد. أحياناً أرى فارساً لا أميز ألبسته جيداً قادماً من بعيد فأنفعل، ولكنه عندما يقترب أدرك أنه لايأتي إليّ. لم يعد يأتيني أحد في الفترة الأخيرة، وصرت أعرف أن أحداً لن يأتي.

ولكنني لا أشكو من هذا، ولا همَّ لي يدعى عزلة. وفّرت نقوداً كثيرة منذ أيام عملي كبيراً للمنجمين. تزوجت. لدي أربعة أطفال. تركت عملي في الوقت المناسب، ولعل هذا بسبب ما منحني إياه عملي من إحساس بما سيقع من كوارث. هربت إلى هنا ـ إلى غبزة ـ قبل أن تذهب جيوش السلطان إلى ڤيينا، وقبل ضربه رؤوس المهرجين من حوله، وكبير المنجمين الذي أتى بعدي حين غضب من الهزيمة، وقبل إسقاط سلطاننا المغرم بالحيوانات عن العرش بوقت طويل. بنيت هذا المنزل، وسكنتُ فيه جالباً معي كتبي التي أحبها، وأولادي، ورجلين من رجالي. امرأتي التي تزوجتها عندما كنت كبير المنجمين تصغرني كثيراً، وتفهم في شؤون البيت جيداً. تحتمل أعباء البيت كلها، وأعباء أعمالي الصغيرة الأخرى، وتتركني ـ أنا الذي أسندت سلم العمر إلى السبعين ـ طوال اليوم في هذه الغرفة وحيداً لأكتب كتبي، وأتخيّل. وهكذا أفكر بقدر ما أستطيع لإيجاد نهاية لقصتي وحياتي.

حاولت في السنوات الأولى عدم إنجاز كتابي. وحاول السلطان أن يذكره مرة أو اثنين فرأى أنني لاأحب هذا الموضوع. أعتقد أنه مسرور أيضاً من هذا. هو تواق فقط. ولكنني لم أعرف في أي وقت ما يتوق إليه، ومقدار توقه. منذ البداية قال لي يجب ألا أخجل لتعلّمي منه وتأثري به. كان يعرف منذ البداية أنه هو الذي يكتب تلك الكتب والتقويمات والنبوءات التي قدمتها له على مدى سنوات. وقد قال لي هذا عندما كنتُ معتكفاً في البيت على تصميم سلاحنا الذي غاص في الطين وبقي هناك، وقال له هذا كما قاله لي، وحكيت له كل شيء. فهو يعرف تماماً أنه شرح هذا. لعلنا في تلك الأثناء لم نفوّت الفرصة تماماً، ولكنني شعرت أن السلطان يطأ على الأرض بقوة.

في تلك الأثناء أيضاً فكرت أن السلطان أذكى مني. ويعرف كل ما يجب أن يعرفه. ويحيك الأحابيل ليضعني في قبضته. لعل هذا ناتج عن الشعور بالامتنان لتخليصه لي من غضب الجنود المسعورين بأقاويل النحس والهزيمة. لأنهم عندما علموا أن الكافر هرب طالب بعض الجنود برأسي. لو كان السلطان قد سألني بصراحة في السنوات الأولى لشرحت له كل شيء. عندئذ لم تكن قد انطلقت الشائعات أنني لست أنا، وأردت التحدث بما جرى لأحد ما. كنت أشتاق إليه.

عيشي وحيداً في ذلك البيت الذي سكناه معاً لسنوات طويلة وتر أعصابي. كانت جيوبي مليئة بالنقود. في تلك الفترة اعتادت قدماي على الذهاب إلى سوق النخاسة. ترددت إلى هناك شهوراً باحثاً عما أريد. في النهاية اشتريت مسكيناً في الحقيقة لايشبهني كثيراً، وجلبته إلى البيت. خاف مني حين طلبت منه في الليل أن يعلمني كل شيء، وأن يحكي لي عن بلده وماضيه، والأكثر من هذا أن يفضي لي بمساوئه وذنوبه، وعندما أوقفته أمام المرآة. كانت ليلة سيئة، أشفقت فيها على المسكين، وعزمت على تحريره صباحاً، ولكن شحِّي أمسكني. أرجعته إلى سوق النخاسة وبعته. بعد ذلك قررت الزواج، وبثثت خبراً في الحي حول هذا الأمر. في النهاية جاؤوني فرحين آملين أنهم سيشبّهونني به، وأنني سأجلب الطمأنينة إلى الحي. وأنا كنت مسروراً ومتفائلاً من شبهي بهم، مفكراً بأن الشائعات ستنتهي، وأنني سأعيش سنوات مستقراً من تأليف الحكايات لسلطاننا. اخترت زوجتي بدقة. وكانت تعزف لي على العود ليلاً.

عندما عادت الشائعات اعتقدت بداية أن هذه لعبة من ألاعيب السلطان، لأنني كنت أعتقد أنه يستمتع بمراقبة مخاوفي، وتوجيه أسئلة تحيرني. بداية عندما كان يفاجئني بعبارة: «هل نعرف أنفسنا؟ على الإنسان أن يعرف نفسه جيداً»، لم أحتر كثيراً. كنت

أعتقد أن هذه الأسئلة الموترة للأعصاب قد تعلمها من أحد المخبولين التواقين للفلسفة اليونانية، بين حاشيته التي بدأ بإعادة تجميعها. حين طلب مني أن أكتب في هذا الموضوع قدمت له كتابي الأخير عن الغزلان والعصافير التي لاتتوقف عند معرفة نفسها، وهي سعيدة لأنها لاتعرف نفسها. وما أن علمت أنه تناول الكتاب جدياً، وقرأه مستمتعاً حتى ارتحت قليلاً، ولكن الشائعات وصلت إلى أذني. يقولون إنني أعتبر السلطان مخبولاً لأنني لاأشبه الشخص الذي أخذت مكانه. هو نحيل وضعيف، وأنا سمنت. وعندما قلت إنني لن أستطيع معرفة كل ما يعرفه فهموا أنني أكذب، وأنني سأهرب خلال إحدى المعارك بعد أن أنثر النحس، وأفعل ما أفعله، وأعطي أسرار الحرب للعدو وأسهّل الهزيمة... الخ... الخ! ولكي أحمي نفسي من هذه الشائعات التي أعتقد أن السلطان يروجها سحبت يدي وقدمي من حفلات اللهو، ولم أعد أظهر كثيراً. نحلت. وفي الليلة الأخيرة استفسرت بانتباه عما يجري في خيمة السلطان، وعلمت به. كانت زوجتي تلد الأطفال وراء بعضهم البعض، وكان دخلي جيد. أردت أن أنسى الشائعات وأنسى السلطان وأنسى الماضي، وأن أستمر بعملي.

صمدت حوالى سبع سنوات. ولو كانت أعصابي أقوى مما هي عليه، ولو أنني لم أشعر بأن السلطان سيجري تنظيفاً جديداً لحاشيته لكان من الممكن أن أستمر إلى النهاية. لأنني بعبوري الأبواب التي فتحها لي السلطان باباً باباً تلبّستني شخصيتي السابقة التي أردت أن أنساها، وقد نسيتها. في الفترة الأولى كنت أجيب منهاراً على أسئلة الهوية التي كانت تقلقني. كنت أقول: «ما أهمية من يكون الإنسان؟ المهم هو ما يفعله». وأعتقد أن السلطان دخل إلى خزانة عقلي من هذا الباب حين طلب مني أن أحكي له عن البلد الذي هرب إليه، عن إيطاليا. غضب عندما قلت له لا أملك مزيداً من المعلومات. السلطان أيضاً قال لي بأنه شرح لي كل شيء، ولماذا

أخشى من هذا الأمر، ومن أجل هذا الأمر يكفي أن أتذكر ما شرحه لي. وهكذا أعدت شرح طفولته، وذكرياته الجميلة التي أخذت قسماً منها من أجل هذا الكتاب للسلطان. لم تكن أعصابي متوترة إلى تلك الدرجة في البداية. وكان السلطان يستمع إليّ كما يجب، أي كما يستمع إلى شخص يروي ما سمعه من آخر. ولكنه في السنوات التالية تمادى أكثر، فصار يستمع إليّ كما لو أنه يستمع إليه. ولم يطلب مني قول ما يخطر ببالي فوراً، وألا أخاف إلا بعد أن سألني عن التفاصيل التي يمكن له معرفتها: إثر أية حادثة بدأت أخته تتأتئ؟ لماذا لم يُقبل في جامعة (بادوا)؟ ما لون ألبسة أخيه الأكبر في أول عرض مفرقعات حضره في البندقية؟ عندما كنت أروي للسلطان هذه التفاصيل كأنها وقعت لي، كنا عادة مثل اثنين تمتزج ذكريات طفولتهما لأنهما قضيا فترة معاً في إحدى الحدائق أو متنزه في قارب، أو عند بركة ماء تمازجت فيها نباتات النيلوفر مع الضفادع، ولكن السلطان المستمتع بتلك القصص كان يقترب مني أكثر كما تتلاعب الأزهار المتفتحة في حديقة عقولنا، ويذكره كما لو أنه يذكر صديقاً قديماً خانه. في هذه الفترة قال: جيد أنه هرب، وإلا لما احتمل فظاظته على الرغم من تسليته له، وقد فكر كثيراً بقتله. بعد ذلك قدم بعض التصريحات المخيفة لي لأنني لم أعرف أيّاً منا يقصد بكلامه. ولكن نبرته لاتحمل حقداً، بل محبة. مرت عليه أيام خشي فيها أن يقتله غاضباً من عدم تحمّل جهله حدوده، وكاد ينادي الجلادين في الليلة الأخيرة! بعد ذلك قال إنني لست فظاً، ولا أعتقد أنني أذكى وأمهر إنسان في العالم، ولم أحاول تفسير كارثة الوباء لمصلحتي الخاصة، ولا أؤرّق أحداً في الليل بحكايات الملوك الصغار الجالسين على الخوازيق، وليس لي أحد في البيت أهرع إليه بعد الاستماع لأحلام السلطان لأسخر منها، وليس لي أحد أيضاً أكتب معه حكايات عبثية وفارغة لخداعه! عندما كنت أسمع هذا، أعتقد كما لو أنني في حلم، وأرى نفسي أو نفسينا من الخارج،

وأشعر خائفاً أنني فقدت رأس الخيط، ولكن السلطان تمادى بالشرح في الأشهر الأخيرة، وكأنه يريد أن يجنّنني. أنا لست مثله، ولم أدع عقلي ينجرف وراء سفسطة الفصل بينهم وبيننا! إن شيطان عرض المفرقعات الذي أعددناه قبل سنوات طويلة عندما كان السلطان في الثامنة من عمره والذي حقق النصر في السماء المظلمة هو شيطاني حسب رأيه، والآن هو معه، وقد ذهب إلى البلد الذي يعتقد أنه سيصل فيه إلى الطمأنينة! فيما بعد كان السلطان يسألني متوفزاً وسط نزهات الحديقة المكررة نفسها: ترى هل من الضروري أن يكون الإنسان سلطاناً ليفهم أن الناس في الجهات الأربع والأقاليم السبعة متشابهون؟ كنت أسكت خائفاً. كان يسأل مرة أخرى لكسر مقاومتي: أليس أفضل إثباتٍ على أن الناس متشابهون هو استطاعتهم أخذ أمكنة بعضهم البعض؟ لقد أُفلت زمام الأمر.

ولأنني أملت أن السلطان سينجح بنسياني معه، وفكرت بجمع مزيد من النقود، واعتدت على الخوف من المجهول احتملت هذه الأمور صابراً. ولكننا تهنا في غابة ونحن نلاحق أرنباً على صهوات الخيول، فصار يفتح أبواب عقلي ويغلقها عشوائياً كتجوالنا في الغابة، وفوق هذا كان يفعل هذا أمام الجميع وقد امتلأ محيطه بأولئك المهرجين. فكرت أنه سيقوم بحملة تنظيف جديدة، وسيصادر أموالنا جميعاً فخفت لتوقعي الكارثة. حين أمرني بالكتابة عن الجسور في البندقية، والدانتيل في غطاء المنضدة التي كان يتناول عليها إفطاره عندما كان طفلاً، وما تذكره حين أوشك أن يُقطع رأسه لكي يُسْلِم، واليوم الذي جعله يروي ما رآه من نافذة بيته المطلة على الحديقة الخلفية وكأنها حدثت لي، أو أنها حكاياتي، وأجعلها كتاباً، قررت أن أهرب من اسطنبول في أقرب فرصة.

سكنّا بيتاً آخر في غبزة من أجل أن أنساه. في الفترة الأولى خشيت أن يأتي رجال القصر ويأخذونني، ولكنْ ليس ثمة قادم أو

سائل. كما أنهم لم يمسوا مداخيلي. إما أنهم نسوني أو أنني تحت رقابة السلطان السرية. لم أهتم، ووضعت أموري في نصابها. وبنيت هذا المنزل، ونظّمت الحديقة الخلفية على هواي، وقضيت وقتي بقراءة كتبي، وكتابة قصص مسلية على مزاجي، وأستمع لضيوفي القادمين لاستشارتي عندما علموا أنني كبير منجمين سابق أنجّم للمتعة وليس من أجل النقود. ولعلي عرفت بلدي الذي عشت فيه طفولتي أكثر ما عرفته في تلك الفترة. وقبل أن أتحدث عن مستقبل المعاقين، والتائهين، والفاقدين أولادهم أو أخوتهم، والمرضى الميئوس منهم، وآباء العوانس، والذين لاتطول قاماتهم بأي شكل، والأزواج الغيورين، والعميان، وبنائي السفن، والعشاق الفاقدين وعيهم، كانوا يحكون لي مطولاً عن حياتهم، وليلاً أكتب على الدفاتر ما استمعت إليه من أجل إدخاله إلى كتاب كما فعلت في هذا الكتاب.

في تلك السنوات أيضاً عرفت ذلك العجوز الذي جلب معه حزناً عميقاً إلى غرفتي. كان يكبرني بعشر سنوات أو خمس عشرة سنة. قال إن اسمه (أوليا). فور رؤيتي الكدر على وجهه قررت أن مشكلته هي العزلة، ولكنه لم يقل هذا. قال إنه قضى عمره بالتجوّل وكتابة (سياحة نامة) في عشرة مجلدات وهي على وشك الإنجاز، وقبل أن يموت سيذهب إلى مكة والمدينة حيث المكان الأقرب إلى الله، وسيكتب عن تلك الأماكن أيضاً، ولكن ثمة نقص في كتابه يؤرقه، فهو يريد أن يشرح لقرائه عن إيطاليا التي سمع عن جمال صنابيرها وجسورها كثيراً. ترى هل يمكنني أن أحكي له عنها فقد سمع بشهرتي في اسطنبول؟ عندما قلت له إنني لم أر إيطاليا، قال إنه يعرف هذا مثل الجميع، ولكن كان لدي عبد من هناك حكى لي كل شيء، وإذا شرحت له، فإنه بالمقابل سيروي لي أموراً مسلية: أليس الجانب الأمتع من الحياة هو تلفيق حكايات ممتعة، والاستماع إلى حكايات ممتعة؟ أخرج من محفظته خَجِلاً خريطة، وكانت أسوأ خريطة رأيتها لإيطاليا، فقررت أن أحكي له.

كان يشير إلى مدينة بيده السمينة التي تذكر بيد طفل، وبعد أن يقرأ اسمها مهجياً حروفها، يكتب على ورقة أحلامي التي أشرحها له بعناية. أراد حكاية عجيبة لكل مدينة. وهكذا عبرت من الشمال إلى الجنوب في ثلاث عشرة مدينة خلال ثلاث عشرة ليلة لدولة أراها أول مرة. وبعد هذا العمل الذي استغرق الصباح كله عاد من سجيليا إلى اسطنبول بوساطة السفينة. ولأنه سُرّ مما رويته له قرر إسعادي فحكى لي عن البهلوانات المفقودين في سماء عكا، والمرأة التي ولدت فيلاً في قونية وابنها، والثيران ذات الأجنحة الزرقاء، والقطط الوردية على ضفاف النيل، وبرج الساعة في ڤيينا، وأسنانه الأمامية التي ركّبها هناك، وأراني إياها مبتسماً، والمغارة المتكلمة على ضفة (الأزاك) والنمل الأحمر في أمريكا. لسبب ما كانت تلك الحكايات تنشر في داخلي حزناً عجيباً، حتى أنني وجدت في داخلي اندفاعاً إلى البكاء. كانت حمرة الشمس الغاربة تسقط على غرفتي حين سألني أوليا عما إذا كانت تلك الحكايات التيهية قد حدثت أم لا، فطلبت منه أن ينام ليلته مع رجاله. أريد أن أتوّهه حقيقةً: لدي حكاية عن شخصين أخذ كل منهما مكان الآخر.

ليلاً، بعد أن انسحب كل شخص إلى غرفته، وبعد أن أرخى ذلك الصمت الذي كنا ننتظره كلانا ظلاله على البيت، عدنا مجدداً إلى الغرفة. حلمت بهذه الحكاية التي أنتم على وشك الانتهاء من قراءتها في ذلك الوقت أول مرة. لم يكن يبدو ما رأيته ملفقاً، بل معاشاً، كأن شخصاً آخر يهمس لي بكلماتها، وتصطف الجمل وراء بعضها البعض بطيئاً: «كنا مبحرين من البندقية إلى نابولي، عندما اعترضتنا السفن التركية...».

بعد منتصف الليل بكثير عندما انتهت حكايتي خيّم صمت طويل. شعرت أن ضيفي وأنا نفكر فيه، ولكن في رأس أوليا «هو» مختلف تماماً عن الذي في رأسي. ليس لدي شك بأنه يفكر في حياته! وأنا أفكر في حياتي وفيه، وبأنني أحب حياتي، وأعتز بكل ما عشته

وحلمت به. كانت الغرفة التي نجلس فيها مليئة بالذكريات الحزينة لما كنّاه في زمن ما وأردنا أن نكونه. عندئذ فهمت بشكل واضح وصريح أنني لن أنساه، وأنه سيحزنني حتى نهاية حياتي. صرت أعرف أنني لن أستطيع العيش وحدي في أي زمن: كأن ظل شبح جذّاب أرّقنا، ودفعنا كلينا إلى الفضول. نزل إلى داخل الغرفة في منتصف الليل مع حكايتي. ومع الصباح أسعدني ضيفي قائلاً إنه أحب حكايتي، بعد ذلك أضاف أنه سيعارض بعض الأمور. لعلني استمعت إليه باهتمام لأننا كلينا نريد التخلص من ذكرياتنا الموترة للأعصاب، ولأنني أريد العودة في أسرع وقت ممكن إلى حكايتي.

قال: يجب علينا أن نبحث في الغريب والمدهش كما في حكايتي. نعم، لعل هذا هو الأمر الوحيد الذي يمكننا عمله لمواجهة ضيق العالم الذي يسئمنا. لأن الأمور نفسها تتكرر وهو يعرف هذا منذ سنوات الطفولة والمدرسة، ولم يخطر بباله مجرد خاطر أن يغلق على نفسه بين أربعة جدران. لهذا السبب فقد قضى عمره كله بالتجوال في طرق لاتنتهي باحثاً عن حكايات. ولكن علينا أن نبحث عن الغريب والمدهش في العالم وليس في دواخلنا. البحث في داخلنا، والتفكير بأنفسنا بأكثر مما هي عليه لايمنحنا سوى الحزن، وهذا ما وقع للناس في حكايتي. لهذا السبب لم يستطع الأبطال أن يكونوا أنفسهم بأي شكل. لهذا السبب فإن كل شخص يريد أن يكون غيره. بعد ذلك سألني: «بفرض أن ما حدث في هذه الحكاية حقيقة. هل أؤمن أن اللذين تبادلا أمكنتهما يمكن أن يسعدا؟» سكتُ. بعد ذلك ذكّرني بتفصيل في حكايتي: علينا ألا ننجرف وراء آمال العبد الإسباني المقطوع اليد. في هذه الحالة لكثرة كتابتنا هذا النوع من الحكايات وبحثنا عن الغرابة في أنفسنا سنغدو أشخاصاً آخرين، ليحمنا الله، وليحمِ قراءنا. إنه لايريد حتى مجرّد التفكير بذلك العالم المخيف الذي يذكَر فيه الناس غرابتهم في حكايات وكتب.

أنا أردت. لهذا السبب عندما انطلق ذلك العجوز الناعم الذي

أحببته فجأة في يوم واحد خفيفاً جامعاً رجاله عند الفجر للذهاب إلى مكة، جلستُ فوراً وكتبت كتابي. ولعلني تحدثت في كتابي بقدر ما استطعت عن نفسي، وعن ذلك الذي لم أستطع فصله عني من أجل أن يستطيع الناس التفكير بشكل أفضل بعالم المستقبل المخيف. ولكنني لم أستطع، وفكرت بهذا وأنا أقرأ هذا الكتاب الذي ألقيته جانباً، قبل ستة عشر عاماً. لهذا أضفت هذه الصفحة إلى كتابي معتذراً من القراء الذين لايحبون حديث الإنسان عن نفسه، خاصة إذا انجرف في سيل المشاعر.

أحبه كما أحب منظري المتأزم المستحق للشفقة الذي أراه في أحلامي، وكما أغرق بخجل هذا المنظر وغضبه وذنبه وحزنه، وكما يجرفني الخجل أمام حيوان بري يموت كدراً، وكما أغضب لوقاحة ابني، وكما أعرف نفسي بقرف مخجل، وفرح مخجل، ولعله على الأغلب هكذا: كما أعرف اعتيادي على الخفقان لا لشيء مثل حشرة، وكما أعرف أفكاري المترددة أصداؤها بين جدران عقلي، ورائحة الرطوبة الفائحة من جسدي مشفقة، وشعري المتعب حتى الانهيار، وفمي القبيح، ويدي الوردية الممسكة القلم. لهذا السبب لم يخدعوني. لم أُخدع أبداً بالإشاعات المترددة كلها بعد أن كتبت كتابي وألقيته جانباً لكي أنساه، وبألعاب الذين سمعوا بشهرتنا ويريدون استغلال هذا الأمر! يقال إنه يضع تصميماً لسلاح جديد تحت ظل جناحي باشا في مصر! ويقال إنه كان في ڤيينا عندما هُزمنا يقدم النصائح لنهزم في أقصر فرصة ممكنة! رأوه في أدرنة بزي متسول، وطعن منجِّد لحف في شجارٍ لصغار التجار والمهنيين، ثم صار في عداد المفقودين! وهو يعمل إمامَ جامع حي لإحدى القصبات الأناضولية، وقد أسس مؤقت خانة، والذين يقولون هذا يقسمون أن كلامهم صحيح، ويقال بأنه بدأ بجمع النقود من أجل برج ساعة! ويقال بأنه ذهب خلف الوباء إلى إسبانيا، وكتب كتباً حوله وصار غنياً! وقد بلغ فيهم القول حد أنه وراء الأحابيل التي حيكت لإسقاط سلطاننا

المسكين عن العرش! لكثرة ما استمعَ للاعترافات الحقيقية في القرى السلافية، في النهاية، رفع على الراحات مثل خوري أسطوري مصروع، وصار يكتب كتباً مؤرقة! ويقال إنه يتجول في الأناضول مدعياً أنه سيسقط السلاطين المخبولين جارّاً خلفه زمرة سَحَرَها بنبوءاته وأشعاره، وهو يدعوني لأصطحبه! سمعت كثيراً من الشائعات الأخرى على مدى ستة عشر عاماً وأنا أكتب الحكايات لأنساه، ولتسلية أناس المستقبل المخيفين في العوالم المخيفة، والاستمتاع بطعم خيالي، ولكنني لم أصدّق أيّاً منها. لا أدري إن كان هذا يحدث لآخرين: أحياناً ونحن نسجن أنفسنا بين أربعة جدران على سفحٍ قريب من الخليج، وأحياناً ونحن ننتظر دعوة لاتأتي بأي شكلٍ من منزل أو قصر، وأحياناً ونحن نتبادل الكره مستمتعين، وأحياناً ونحن نكتب أطروحة جديدة لسلطاننا متضاحكين، كنا نتوقف عند تفصيل معين: كلب مبتل رأيناه صباحاً، الفراغية السرية في لون وأشكال غسيل منشور بين شجرتين، زلة لسان تظهر تناظرية الحياة! هذا أكثر ما أشتاق إليه الآن! لهذا السبب عدت إلى الكتاب الذي دفنت فيه ظلي معتقداً أنه سيُقرأ بعد سنوات أو قرون من موتي، ولن أهتم كثيراً إذا لم يقرأ، ولهذا دفنت فيه اسمه وإن لم يكن عميقاً: من أجل التفكير مجدداً بليالي الوباء، وطفولتي في أدرنة، والساعات الجميلة التي قضيتها في حديقة السلطان، والرعشة التي أعتقد أنني أحسست بها في ظهري عندما رأيته أول مرة عند باب الباشا. يعرف الجميع أننا يجب أن نتخيل مجدداً الحياة والأحلام التي فقدناها من أجل استعادة السيطرة عليها. وأنا صدقت حكايتي.

سأنهي كتابي شارحاً ما جرى يوم قررت أن أنهيه: قبل أسبوعين كنا جالسين إلى منضدتنا، وبينما كنا نعمل على تخيل حكاية أخرى رأيتُ فارساً قادماً من جهة اسطنبول. في الفترة الأخيرة لم يأتِ إليّ أحد بخبر عنه، من الممكن أن تصرفي الكتوم

معهم جعلهم لايأتون، ولا أعتقد أنهم سيأتون، ولكن فور رؤيتي لذلك المسافر ذي الرداء الغريب حامل الشمسية فهمت أنه قادم إلي. سمعته قبل أن ندخل إلى غرفتي يتكلم بلغة تركية ليست بمستوى لغته، ولكنها تحمل أخطاءه نفسها. فور دخولي إلى غرفتي حوّل إلى الإيطالية. عندما رأى أنني شددت عضلات وجهي ولم أجب قال بلغة تركية ضعيفة بأنه اعتقد أنني أعرف قليلاً من الإيطالية. بعد ذلك حكى لي: لقد عرف من أكون منه. بعد أن عاد إلى بلده كتب مجموعة كبيرة من الكتب حول المغامرات الغريبة التي عاشها بين الأتراك، وحول آخر سلاطين الأتراك المحب للحيوانات وأحلامه، وحول ميول الأتراك وعاداتهم وتقاليدهم، وحول الأتراك والوباء، وحول القصر، وحول قواعدنا في الحرب. وبسبب الفضول نحو الشرق الساحر المنتشر بين الأرستقراطيين وسيدات المجتمع المُحدثات النعمة قوبلت كتاباته بالاهتمام، وقرئت كتبه على نطاق واسع، وأعطى دروساً في الأكاديميات، وصار غنياً جداً. تأثرت خطيبته السابقة برومانسية كتاباته فانفصلت عن زوجها دون اهتمام لدموعه، وتزوجت منه. اشتريا بيت العائلة القديم بعد أن تفرقت العائلة وبيع، وسكنا فيه، وأعادا البيت والحديقة إلى ماكانا عليه. ضيفي يعرف كل هذه الأمور لأنه زاره بعد أن أُعجب بكتبه. وهو ظريف جداً، فقد منح يومه كله لضيفي، وأجاب على أسئلته، وحكى لي مجدداً عن المغامرات التي كتبها في كتبه. عندئذ تحدث عني مطولاً. وقال إنه يكتب كتاباً عني بعنوان: «تركي عرفته عن قرب» يتناول فيه حياتي كلها بدءاً من طفولتي في أدرنة حتى يوم افتراقنا، مدعّماً تناوله بتفسيرات شخصية ذكية حول خصوصيات الأتراك، ليقدمه للقراء الإيطاليين التواقين لهذه الأمور. قال ضيفي: «يا لكثرة ما حكيتم له عن أنفسكم!». بعد ذلك ذكّرني ببعض التفاصيل التي قرأها من بعض الصفحات ليدهشني: بعد أن ضربت دون رحمة أحد أصدقائي في الحي حين كنت طفلاً خجلت مما فعلت، وبدأت أبكي

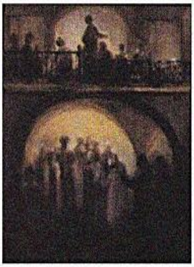
حزيناً. ولأنني ذكي استطعت فهم الفلك الذي علمني إياه كله في ستة أشهر. وأحب أختي. متعلق بديني. وأصلّي دائماً، أحب معقود الكرز الحامض. لدي انجذاب خاص نحو مهنة عمي زوج أمي وهي تنجيد اللحف. أحب الناس جميعاً مثل بقية الأتراك... الخ... الخ. لن أستطيع التصرف ببرود مع هذا المخبول الذي أظهر كل هذا الاهتمام بي. ولمعرفتي أن أمثاله فضوليون أريته البيت غرفة غرفة. بعد ذلك اهتم بألعاب أولادي الصغار الذين يلعبون مع أصدقائهم. وكتب على دفتر معه قواعد الألعاب التي شرحتها له (الاستغماية) و(أمسكني أنا هنا)، و(القفز المتتالي من فوق الظهر) التي أحبها كثيراً غير لعبة (العصا والحاح) فقط. في تلك اللحظة قال إنه صديق للأتراك. ولأنه لا عمل له أريته حديقتنا بعد الظهر، وبعدها غبزة، وبعدها البيت الذي سكنت فيه معه قبل سنوات. وعندئذ قال العبارة ذاتها. وبينما كان يسير بانتباه شديد بين قطرميزات المخلل والمعقود، وجِرار زيت الزيتون والخل في غرفة المؤونة التي ثار فضوله كثيراً لرؤيتها، رأى رسماً شخصياً لي بالألوان الزيتية رسمه رسام بندقي. تمادى قليلاً. قال هامساً كأنه يفضي بسرّ: إنه كتب أموراً قبيحة عن الأتراك، وهو ليس صديقاً لهم. قال: إنه كتب أننا بدأنا ننحدر، وتحدث عن عقولنا كما لو أنها خزائن مليئة بأغراض مهترئة، وأننا لايمكن أن نفلح، وليس أمامنا سوى أن نطأطئ رؤوسنا لهم. ولكي لايتمادى أكثر. قلت له فوراً: «ولكنه أراد أن يخلّصنا» أجاب مسرعاً: نعم، لقد صنع سلاحاً لنا، ولكننا لم نفهمه. في صباح ضبابي انغرزَ السلاح في مستنقع كجثة هامدة كما تغرق سفينة قراصنة مخيفة بين الصخور في يوم عاصف. ثم أضاف قائلاً: نعم، كان لديه رغبة شديدة بتخليصنا. وهذا لايعني أنه خال من شعور سوء شيطاني. وكل الدهاة هكذا! تناول رسمي الشخصي، ونظر إليه باهتمام عن قرب، وهو يتمتم حول الدهاء: لو لم يسقط أسيراً لدينا، ولو قضى عمره في بلده لكان ليوناردو القرن السابع عشر. بعد ذلك

عاد إلى موضوع المساوئ الذي يحبه كثيراً، وحكى لي شائعة أو اثنتين لم أحفظهما عن ماديته. بعد ذلك قال: «الغريب في الأمر عدم تأثركم به نهائياً». عرفني، وأحبني، وعبّر عن إعجابه بي. قال: إنه لايستطيع فهم كيف يقضي شخصان كل هذه المدة سوية دون أن يتشابها. لم يطلب رسمي كما كنت أخشى. وبعد أن وضعه حيث أخذه، سألني: هل أستطيع رؤية اللحف؟ قلت دون معنى: «أي لحف؟» سأل مندهشاً عما إذا كنت أُنجّد اللحف في أوقات الفراغ. عندئذ قررت أن أريه الكتاب الذي لم ألمسه منذ عشرين عاماً.

انفعل كثيراً. قال إنه يستطيع قراءة التركية، ويتوق للتعرف على كتاب يتعلق به. صعدنا إلى الأعلى، إلى غرفة عملي المطلّة على الحديقة الخلفية. جلس إلى منضدتنا، ووجدت كتابي حيث دسسته بعد ستة عشر عاماً وكأنني تركته البارحة. فتحته ووضعته أمامه. كان يستطيع قراءة التركية وإن كان بطيئاً، وقد دفن نفسه في كتابي بإرادة مدهشة تغضبني رؤيتها في الرحالة كلهم قبيل انفصالهم عن دنياهم السليمة والموثوقة. تركته وحيداً. خرجت إلى الحديقة، وجلست متربعاً في مكان أستطيع رؤيته منه عبر النافذة المفتوحة. بدايةً كان فرحاً. ناداني من النافذة: «يبدو جلياً أنكم لم تطوّوا إيطاليا!». بعدئذ نسيني. انتظرته جالساً في الحديقة ثلاث ساعات لكي ينهي الكتاب. أحياناً أنظر إليه بطرف عيني. حين أنهاه كان قد فهم. تعكر وجهه مرة أو اثنتين. ذكر لي وهو يرفع صوته اسم القلعة البيضاء خلف المستنقع الذي ابتلع سلاحنا، حتى أنه حاول أن يتحدث معي بالإيطالية دون جدوى. بعد ذلك التفت نحو النافذة وبدأ ينظر ساهماً من أجل هضم دهشته، وما قرأه. كنت أنظر إليه مستمتعاً. بدايةً كان ينظر إلى الفراغ، إلى نقطة لانهائية، إلى بؤرة غير موجودة كما ينظر الناس كلهم في وضع كهذا. ولكن بعد ذلك، بعده بكثير، رأى ما كنت أنتظر أن يراه. كان ينظر هذه المرة إلى مايراه عبر إطار النافذة. لا، لابد أن قرائي الأذكياء فهموا أنه ليس

مخبولاً بقدر ما توقعت، وكما توقعت. بدأ يقلب صفحات الكتاب بانتباه شديد. كان يبحث عن شيء ما، وأنا انتظرت مستمتعاً أن يجده، ثم نظر مجدداً إلى ما يمكنه أن يراه من تلك النافذة المطلة على حديقتي الخلفية. طبعاً أعرف جيداً ما رآه:

ثمة درّاق وكرز في صينية مطعّمة بالصدف على منضدة، وخلف المنضدة مقعد متطاول مغطى بحصيرة، وعليها مخدات ريش طيور بلون إطار النافذة الأخضر، كنت أجلس أنا المُسند سلم عمري إلى السبعين هناك. وأرى في المدى الأبعد جبّاً حطت على حافته سنونوة، وشجرتي كرز وزيتون، وعلى غصن شجرة الجوز التي تتوسطهما أرجوحة مربوطة بحبال طويلة تتحرك بشكل هادئ بفعل النسيم.



القلعة البيضاء

لقد وضعت رواية «القلعة البيضاء» الكاتب التركي «أورهان باموق» في مصاف الكتاب العالميين، وشكلت منعطفاً في مسيرته الأدبية باستخدامه أسلوب الفنتازيا التاريخية.

وقد حاز في السنوات الأخيرة على لقب الكاتب ذي الكتب الأكثر مبيعاً، وبلغ عدد اللغات التي ترجم إليها تسع عشرة لغة.

اهتمت به الصحافة العالمية، وتناول رواياته كبار النقاد في العالم، وحاز على أكبر الجوائز الأدبية في بلده، وبلدان أخرى مثل جائزة: هيرالدتريبيون، وقد رفضها.

باموق جديد في كل عمل من أعماله على صُعُد الموضوع واللغة والفنية. لذلك يمكن أن يدهشنا في كل لحظة، وفي كل عمل من أعماله.

قالت الصحافة العالمية عن هذه الرواية:

«إنها النتاج الخيالي الأكمل المطروح في المكتبات».

«تكمن مهارة باموق في شمولية الأفكار وكثرتها التي أدخلها في رواية بهذا القِصَر، وهذه البساطة».

«إنها تجذب القارئ بسحرها. إنها متعة حقيقية».

«حكاية لاتنسى».

«حكاية حداثوية تثير الإعجاب مغطاة بالعقائد الراسخة».

«تفكير تاريخي وفلسفي صُنع بدقة وظرافة حول العلاقة بين الشرق والغرب».

Internationella biblioteket